يوسف ضمرة

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

سحب الفوضى

رواية

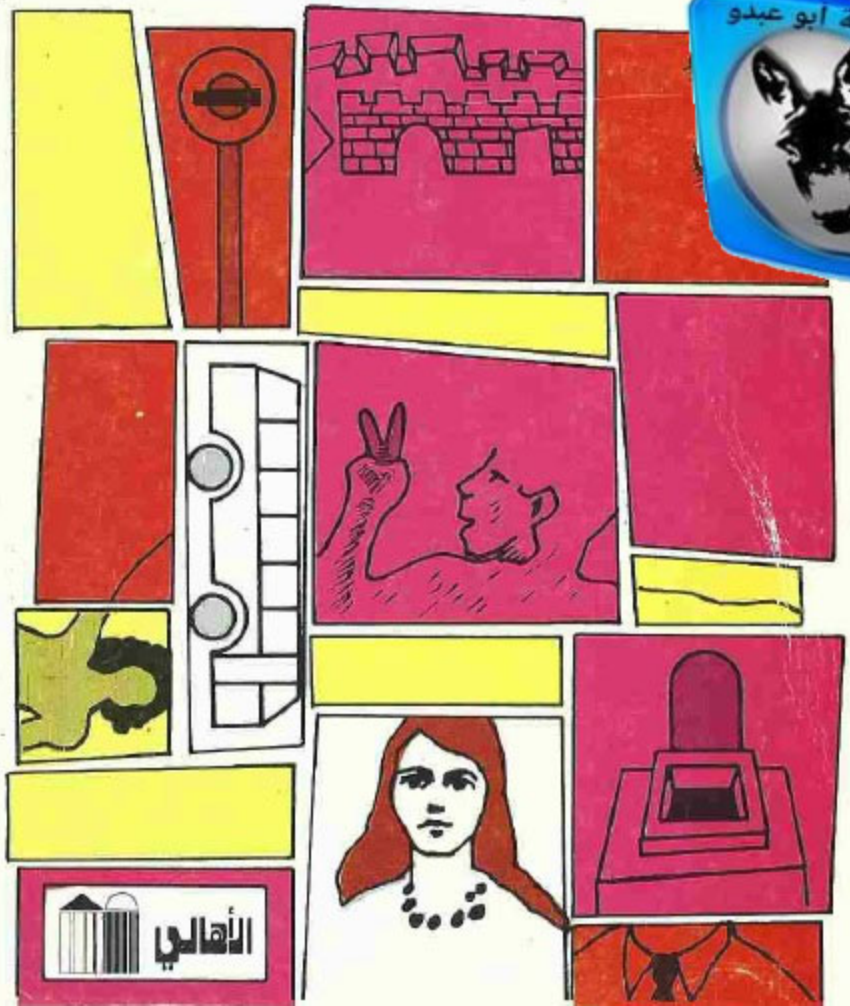

* سُحب الفوضى
* يوسف ضمرة
* الطبعة الأولى ١١ / ١٩٩١
* جميع الحقوق محفوظة للناشر
* الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق ـ هاتف : ٤٢٠٢٩٩ ـ ص.ب ٩٥٠٣ ـ تلكس : ٤١٢٤١٦
* التوزيع :
قسم التوزيع ـ الأهالي للنشر والتوزيع
دمشق ـ هاتف : ٢١٣٩٦٢ ـ ص.ب : ٩٢٢٣ ـ تلكس : ٤١٢٤١٦

سحب الفوضى

رواية

يوسف ضمرة

أعتقـد أنني رفضتُ أن يقـوم الطبيب الشـرعي بتشـريـح الجثـة. قلتُ له متوسلاً ولا ثالث بيننا.

ـ كل شيء طبيعي، سوف اتألم حين تنشر أضلاعي.

ويبدو ان الفكرة راقت للطبيب، فابتسم وخرج، وبقيتُ وحدي في الغرفة السـوداء، غاطسـاً في روائـح ملتصقة بهواء الغرفة المضغوط. ذهبتْ الروائح شيئاً فشيئاً، وأنا انتظر قُدومهم... راحو يرتبـون الصف بشكل جيد وعلامات الحزن الجليل على الوجوه كما يجب. كثير ين كانوا. بينهم الأب الذي أحرق ستين سنة، فدمعت على الدوام عيناه.

حدث كل شيء هذا الصبـاح. لم يُفكـر أحـد بما سوف يكون... عليهم الآن الـوقـوف صفـاً واحداً، يتلقون التعازي من الآخرين، وعليهم احتمال تلك الهمهمات التي تشبه صوت المطارق على حائط ليليّ.

ـ عظّم الله أجركم.

ـ شكر الله سعيكم.

سيحدث هذا، سواء أراقه ذلك أم لا. فعل كل شيء ولم يحسب لأي شيء حسـابـه القـادم.. قبـل ذلـك عدتُ إلى البيت. الغـرفـةُ لا الشارع الصُّور لا الأكتـاف. الهـواء المضغوط. نثار الأحلام. شظايا الكوابيس. الفوضى الخاصة. الـرغبـات المـوزعة في مسام الجدران. أغلقتُ الباب خلفي. لم تتسلْ أمي أحداً.

ربما نفسها. ربما الفضاء الخارجيّ. قلتُ: انتشر في سُحُب الفوضى حتى انهيار الأشياء. حتى انهيار الأشياء. حتى اختفاء المرايا. وليكن الكون بلا مرايا. وقلتُ: لا تبكِ زمانك ولم أقلْ شيئاً على الاطلاق. تمددتُ على السرير المعدني في مواجهة المكتبة. كنتُ قد غادرتها مبكراً قبل الرجوع الأخير. صباحاً كان الوقت. المدينة في انتظاري. الوجوه الصباحية. العيون. عيون حمر. عيون ذابلة. عيون يتعلق النعاس باهدابها. ابتسامات نادرة. كلمات تتدحرج فوق الأرصفة. تركض قدام اطفال اليانصيب والصحف. وتنتظرني الدائرة. ربما جهز المدير كميناً في مكان ما. غرفةٍ أو زاوية. السيارات القادمة بسرعة، لا ابواقها تقصف عن بعد كما تفعل عند الحاجة. لا كوابح كالزلازل، لا انحراف إلى يمين الشارع. ينحرف الهواء البارد احياناً. يلفح الوجه فيرتعش القلب. يرتبك الصباح في العينين. تبدو الاشياء مشتبكةً مثل كرةِ اسلاك معدنية متداخلة. وتبدو الأشياء في دوران لا يقر. في حمى الدوران توقف الباص الصغير فصعدتُ. قبل ان يتوقف مدّت عيناي مصابيحها فاخترقت احشاءه دفعة واحدة. لم أشاهد واقفاً واحداً. بادرةٌ طيبة. غير طيبة. لا أدري. المقاعد فارغة. معظمها فارغ. مع اقترابه دقّ البوقُ رأسي. مددتُ يدي بحياد. العربةُ الوحيدة التي تفتح بوقها كلما لمح السائق شخصاً ما. ربما حين يلمح كلباً او حماراً. خطر لي ذات مسافةٍ أنه سيتوقف بمحاذاة حمار. يفتح (الصبيُّ) الباب. يصعد الحمار بهدوء. يدخل في الممر الضيق بين المقاعد. يتشمم الرؤوس والاكتاف. ثم يستلقي على المقعد الخلفي. فاجأتني عيون جاحظة. جَلست إلى جانب فتاةٍ على الرغم من وجود مقاعد فارغة. التقتْ عيناي بعينيّ السائق الشاب. خيل إليَّ أنه سيتوقف حالاً ويأمرني بالنزول. لشدّ ما كانت عيناه توحيان بالحيرة والسخط. كلما يتوقف تلتقي عيوننا. يتوقف كل عشرة امتار. أكثر أو اقل قليلاً. ليس هذا الصباح فحسب. دائماً يفعل ذلك. ينحني إلى الأمام حتى يُلامس المقودُ صدرَه. يُدير رأسه إلى اليمين واليسار. يبحث عن آدميين هابطين الجبل أو صاعدين إلى الشارع من اسفل.

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

مخلفين البيوت الطينية التي أدمنت لدغ البعوض اليومي . وفتحت ابوابها وشبابيكها وجدرانها للحشرات والعقارب وثعابين الماء واليابسة . يتوقف احياناً دون أن يرى يداً تمتد أو شخصاً واقفاً فارتبك . أنظر إلى ساعتي . ثم ارى السائق ينحني فوق المقود . يرقبُ فتاةً تهبط الشارع الترابي بهدوء . يمدُ يده إلى الواقية الشمسية . يحب علبة سجائره . لكُلٍّ سجائره الخاصة واسلوبه في اشعالها . ولكُلٍّ أسلوبه في ترويض التعازي . بعضهم يشدُّ على اليد بقوة . بعضهم يستخدم يديه الاثنتين . آخرون يُلصقون اجسادهم بالأجساد المترنحة . يحتضنونها بصلابة . آخرون يقبّلون الجبين . كل ذلك تم بهدوء . سكونُ المقبرة جميل . بكوا قبل خروجي من الغرفة السوداء . بوضوح سمعتهم . حاولت أن أصرخ ، فلم يخرج صوتي المجلجل سابقه . كان لساني ثقيلاً متكوماً يلتصقُ بحنكي . شعرتُ بالحزن . تمنيتُ لو لم أمت . وفرحتُ لأني متُ فعلاً . قررت أن أنسى الأصوات ، وأفكر في الدنيا التي أنا مغادرها وقتاً طويلاً أو إلى الأبد . لا أدري . لم يتحدد أي شيء في الذهن .

صورٌ مشوشة لم اقرأ تفاصيلها . نساء . جدات . جثث . أعراس . شوارع . سنوات . حقول خضراء . حقول يابسة . جسور . أمطار . رمال . بكاء . طائرات . . . دارت الصور بسرعةٍ حادة واستقرت بتفاصيل الصباح . حين لمحتُ السخط في عينيّ السائق قلتُ في نفسي : يحق لي الجلوس أينما أشاء . ثم انني لم الاحظ انها فتاة حين جلستُ . بل لاحظتُ . في الحقيقة لا اتذكر . جلستُ وكفى . كان عليّ اتقاء العيون التي راحت تنهش وجهي بأنيابها الوحشية . تبدو الفتاة معلمّةً أو أي شيء مشابه . لم يستسلم لعينيّ وجهها . تتأمل عطرها إلى خلايا الروح ، فغابت أشياء كثيرة اكتشفتها لاحقاً . واكتشفت وحدتي في عتمة الغرفة . ثم فُتح الباب ودخلوا . كانوا واجمين . احدهم قال بصوتٍ مشروخ .

ـ يوسف .

التفت الجميع إليه ، وفعلتُ ذلك . كدتُ أضحك . برفقٍ اغلقوا عينيّ .

واحدٌ فعل ذلك. ربما أبي أو أخي أو سواهما. شعرتُ بالراحةِ والانقباض في آن. قُلتُ لأبي وأنا لا أرى عينيه الدامعتين.

ـ املأ أذنيَّ بالقطن.

فعل. اصبحتْ اصواتهم أبعد كثيراً عني. لم يعد الخارج موجوداً إلى حدٍّ كبير. واختفى الخارج حين جلستُ إلى جانبها. ناولتُ الصبيَّ قطعة النقود. أخذها وهو يحدّقُ في الفتاة. ربما يرى إن من حقّه ان يفعل ذلك، فهو الشخص الثاني بعد السائق، وان كان صغيراً. يدخن بشكل يُلفت الأنظار. ربما يقصد ذلك. يضع السيجارة في فمه ويرفع رأسه إلى اعلى. يسحبُ نفساً عميقاً وينفث الدخان من فتحتيْ أنفه الصغيرتين. يحاول أن يجعل ذلك طبيعياً، فلا يحدقُ في مزاريب الدخان الأزرق والرمادي. يتركُ السيجارة بين شفتيه. يعدُّ نقوداً ليعيدها إلى راكبٍ ما. مؤخرته الصغيرة تحتك بحافة مقعد أو كتف راكب. يغمض عينه التي يغزوها الدخان. يُضيقَ الأخرى. تدمع عينه الأولى أو الاثنتان. وعين الفتاة لا تفارق النافذة إلاَّ للحظةٍ عابرة. تنطلق حينا إلى الأمام. قلتُ في نفسي: إلى مرآة السائق أو الشارع الذي يطويه ببراعة مدهشة. ربما تُساعده بعض أغاني الصباح...

بَسْ المزاج رايق وسليم.

باب الأمل بابك يا رحيم...

كدت أطلب من أبي ازاحة القطن وفتح العينين. علَّ ذاك الحلم قد حدث. الطوفان الجميل بلا هدير. الطاعون الهامس. طائرات بكواتم الصوت الذي سرعان ما ينكسر حاجزه في سماواتنا. حرَّكوني برفق ولفوجسدي بشيء ما. لو لم اعد إلى البيت لاختلف الأمر. لكني عدتُ، وما أن لامستْ عيناي رفوف الكتب حتى انهارت كل المعادلات. دول فوق دول. تاريخ الهنود الحمر. طاغور. كانكان العوام. كفر قاسم. جبران... فوضى. صحتُ بأعلى صوت الروح: رتِّب. قفزتُ. امريكا. لبنان. الهند. فلسطين. البرازيل. الـ.....

ايها الفوق؟ امريكا. أقوى. أغنى. أشرس. أكبر، أعظم. أحقر. أسفل. أأأ... أفعَل التفضيل لا تنتهي. تفضيل التفضيل. تفضيل التحقير. فوضى. فلسطين. أصغر. أعرق. أطيب. فوضى. لبنان. الهند. البرازيل. البرآز... أقوى. أقوى. أقوى. فوضى. ليكن البحر. الأسماك الملونة. الطحالب والسرخسيات. الأشجار. اجمل دول العالم الأشجار. ينسكب البحر من الأعلى ويغمر الطوفان الكون. لم اكن انوي العودة إلى البيت. قررتُ في الشارع ألاّ أذهب إلى اي مكان. ذاك جميل. لكن الصعب ان تعرف ماذا ستفعل. الوقت في البيت جثة باردة. تقرأ. تسمع موسيقى. تستلقي. تدخن بحياد. تشرب القهوة بحياد. تمسحُ عيناك جدران الغرفة مسحاً دقيقاً. ليس في ذلك منعة. الصُّور هي هي. تحدقُ كثيراً، وفي كل مرةٍ تخرج بانطباعٍ مغاير. بيكاسو رائع. عادي. غير رائع. سيء. فنان. طبيعي. شاذ. كيف يكون كل شيء أزرق في الكون؟ مجنون. الرجل. المرأة. الصبي. الملابس. الرمل. الافق. البحر. ازرق. كلهم يحبون الأزرق أما سعد صايل فلا يحب أحداً أكثر من المقاتلي. لايتغير. أسأل نفسي حين أراه: لماذا لا يرتدي زيّاً عسكرياً كالآخرين؟ واحاول النفاذ إلى أفكاره التي سبقت الرصاص إلى الجسد. إلى اليسار فلسطين. اكثر الأشياء التي يُمكن أن تحدق فيها دون ملل. اقفز عدة مرات عن السرير وامشي اليها. ابحث عن قرية. أقيس مسافةً بين نقطتين أو خطين. وعلي فوده يُمسك فنجان قهوته ويحدق في مكانٍ ما. اين يا ترى؟ عُهر. كذب. عالمكم مرحاض تفوح منه رائحة الأمونيا الخانقة. كل شيء ثابت. كل شيء يتغير. كل شيء يدور. نراه ولا نراه. فالشارع أفضل. كم كتفاً اصطدمت بها على الرصيف؟ هنا المشكلة. الوقتُ مبكر للعمل. لماذا خرجت الآن إذن؟

سأتمشى قليلاً حتى تتعب قدماي. في الباص، جلستُ على المقعد المقابل للباب. الباب مغلق. يفتحه الصبي كل عدة أمتار. كل دقيقة أ و اثنتين. يندفع الهواء البارد ساكباً روحه على روحي فارتعشْ. تلتفتُ الفتاةُ إلى الباب. ذاك

جميـل . رأيت وجههـا عدة مراتٍ ولم يستسلم لغيني . لمحتُ عينيهـا . واسعتـين . سوداوين . الـرمـوش طويلة . غير متـلامسـة . هنـاك عالم بين الشعرة والأخرى . وجميعهـا متسـاويـة . حين رمشتْ انبسـط حقـل اخضـر غطى كل جفن . لم يكن أخضر كالربيع تماماً لكنه اخضر . الوجه ابيض . الخدان ابيضان . البياض يمتزج بحمـرةٍ خفيفـة . الحمـرةُ طبيعيـة . ربـما لم تكنْ كذلك . لا يهم . صاح الولد وهو يخشخش بالنقود في يده .

ـ «عوَجان» .

خفف السائق سرعته حتى توقف الباص .

كانت السيـارات ببـطء تسـير إلى المقـبرة . رفعـوني بهدوء . كانـوا ثلاثة . امسـك الأول بقدميّ . الثاني بكتفيّ . واحاط الثالث خصري بذراعيه . وضعوني في صنـدوقٍ خشبي . الصنـدوقُ في سيـارة . تحركت . تبعتها السيارات الأخرى . كانت مقبرة القرية في الجبل الشمالي حيث دُفن جدي وأنا صغير . لم تكن مسيجةً بأسـلاكٍ أو محدودة بسـورٍ من الاسمنت المسلح أو الأعـزل . مقـبرة قروية . جدي كان يحلم أن يدفن إلى جانب النبي موسى . وحين أتذكر ذلك أتساءل : لماذا كان يحبـه إلى هذا الحـد؟؟ ظل ثلاثـة أيام يحتضر في «سقيفة» صغيرة . ومؤذن القرية يقرأ فوق رأسه القرآن . المؤذن اعمى . يقرأ غيباً عن ظهر قلب . يتنفس بعمْق بين فترةٍ وأخـرى . يتـابع حتى بعد منتصف الليل . يذهب عمي يقوده في ازقة القرية المعتمـة إلى بيتـه . وتظـل سورة (يس) تملأ روحي وتأبى الخروج . وخرجت روح جدي في الفجر الرابع . صعدت إلى السماء . هكذا قالت أمي . وذكر أبي النبي موسى فأسكتـه الآخـرون . ذهب عمي وعـاد بالمؤذن . جهـزوا كل شيء . كانوا يحولـون بيني وبينه . لكن رأيته ساكناً ممدداً مثل ساق زيتونة رومية جافة . أو برميل زيت ثقيـل «مبطـوح» . وسألت نفسي : هل حقـاً يرانـا كما تقـول أمي ؟ وسألت نفسي : لماذا يقـول الصبيّ اسم المكـان والنـاس يعرفون؟ والسائق يعرف؟ بحثتْ عينـاي في أرجـاء البـاص . نزلت امـرأة تُمسـك بذراع طفل . صعد ثلاثة أو أربعة

بينهم فتاة بلباس مدرسي يغطي بنطال «الجينز» الأزرق «الكاحت». غرزت عينيّ في ظهر المقعد الذي أمامي. لأول مرةٍ لاحظت حروفاً واشكالاً متعددة. استهواني ذلك. نسيتُ الفتاة. ليس تماماً. قررتُ أن اقرأ كل حرف. لم يكن هنالك ما يربط الأشياء بعضها ببعض. كل شيء مُربكٌ وغامض. الحروف متفرقة. متشابكة. عربية. انجليزية. رسوم. نقاط. خطوط ملونة. مستقيمة. متعرجة. متداخلة. بصعوبة نفذتْ عيناي بعض الشيء تحت كثافة الألوان والخطوط. كان حرف «الطاء» قريباً بعض الشيء من «الزاي». لا ادري ان كان هنالك حرف بينهما. لعبةٌ جميلة. أبجدية واسعة. سعة العالم الذي نحن فيه أو خارجه. ومن يدري؟ عالم واسع. ضيق. بعيد ولا متناهٍ ضيق كثقب ابرة. جيفةٌ في الوحل. وردة لكل الفصول. بسطار. أمريكي أو فرنسي لا فرق. حمار. مختلفان. حمار. متشابهان. خذ الناس. أمريكي وفرنسي. مختلفان. المظلّي الفرنسي يهبط في تشاد والكونغو ومناطق أخرى لا يهبط فيها الأمريكي. فرقٌ واضح. ليس كذلك. مظلي ومظلي. ارضان غريبتان. هما مسلحان. مختلفان في النوع. لكنه قاتل. متشابهان. حمار. مختلفان... لغةٌ على الأقل. في باريس تتحول «الراء» إلى «غين». النفط والموت والميراج والبطيخ والعطور والبساطير والأفخاذ والملابس الصارخة من الحمّى والصامتة من اليأس. وإلى «دال» في مانهاتن. لشدّ ما أنا حزين لأني لا أعرف إلا بعضاً من لغتي، ونتفاً من الانجليزية قد تؤهلني لاقامة علاقة مع امرأة. ليست المشكلة هنا في اللغة إلى جانبي امرأة. أتحداني ان استطعتُ ان أجعلها تفتح فمها بودٍّ صباحي. مالي ولها. الحروف أفضل. خذ الباء والنون مثلا أخذتهما. دارت الأشياء بسرعةٍ اكبر. صحتُ على روحي:

ـ انزع البحر من الرفّ العلوي.

سيغمر الطوفان الكون. بلحظةٍ يحدث ذلك. لا نبيّ يُوصي. أنا أفعل. ولماذا؟ لقد اخطأ نوح ـ من كل زوجين اثنين ـ. لم يخطيء. الرب أمر. ذهبت

ونحن بدأنا. مرت آلاف السنوات. لا فُلكَ بعدك. أين سفينتك يا أبانا الذي في السماء...

اذا صفعونا على خدّنا

سوف نصفعهم بالحذاء.

يا أبانا الذي لا يحب القصاصْ

اذا صفعونا على خدنا.

سوف نصفعهم بالرصاص.

خلّبي رصاص العرب. سأسمعك صوته بعد قليل. اسمع. ها. هل أعجبك؟ رصاص الفلسطيني يُصيب. يُصيب يا أبانا الذي في الـ....

أين تريدني أن أضعك الآن؟ مات الذي قال انك في المباحث. وماذا تفعل في المباحث؟ ستقول أمي حين أعود.

ـ لماذا تعود باكراً إلى البيت؟

ـ جاوزت الساعة الثانية ظهراً.

تفغر فاها. على الرغم من انها لا تُجيد القراءة. ذاك جميل. في الليل حين اعود. تكون نائمة فاوقظها. تقول بتأفف.

ـ حرام عليك، الدنيا نصف الليل.

فأقول ضاحكاً:

ـ لم تتعد العاشرة بعد.

وتكون قد جاوزت الواحدة. تصدقني فتنهض. تجهز لي شيئاً آكله وأنام محظوظاً. قلت ذلك لأحدهم. لم تكن له أم. كانت له زوجة. وافقت على منحه اجازة ليلية حتى العاشرة. ومع الوقت الذي يمر تتسلى بتقليب صفحات مجلةٍ ما. تصل الى الغلاف الأخير ثم تبدأ من جديد في انتظار الزوج الذي تتقاذفه امواج الليل. عوليس. أنا أسميته كذلك وهي بنلوب. وهي لا تعرف الاسمين. أخيراً تنام. علّق صديقي ساعة حائط جميلة في البيت. يدخل ببطء

عند منتصف الليل. يُعيد عقارب الساعة حتى العاشرة إلى حد ما. يدخل بعدها في دائرة العادي. يخلع ملابسه دون خوف. يشعل النور. يسعل، يدندن لحناً مسائياً خافتاً. وحين تصحو زوجته صباحاً تخبره أن الساعة تحتاج إلى اصلاح خللٍ ما. يعدُها بذلك حين يكون لديه الوقت. ولم يعد بحاجة إلى ذلك الوقت. فقد اكتشفتْ هي لعبته. غضبت وضحكتْ. لعبة جميلة. الألعاب كلها جميلة. لعبتُ كثيراً هذا الصباح. جمعتُ «الباء» و«النون». ضممتُ «الباء» فطرتُ إلى ريودوجانير و وسرتاو. أكلتُ مع الفلاحين عرقهم الذي يقطر فوق الخبز الجاف. رأيتُ خوذات العسكر والبساطير التي تجيء من الشمال كالمنخفض الجوي والكتل الثلجية العاصفة. كل شيء يجيء من الشمال. وخبرتُ الجوع الذي يدفن الناسَ في دروبه بعد أن يأكلوا الاعشاب السامة والقطط. والبُن لذيذ. اتفقتُ مع صديق على اجمل ثلاثة اشياء في الكون. القهوةُ منها. المرأة لم تكن. اراد صديقي وضعها فقلتُ له.

ـ دعك منها فهي حالة اخرى. اعتقد ان الله خلقها في اليوم السابع.

قال:

ـ في السابع استراح ألا ترى الناس يستريحون في اليوم السابع. ثم يختلفون فيه؟ السبت والجمعة والأحد.

قلتُ:

ـ اذن تعتقد انه خلق المرأة أيام الفطريات والطائرات والصخور والبترول والشَّعر الذي يُغطي اصابع اقدام الرجل؟. طيب. والأسماء والحروف؟ ضع السين امام النون واكسر السين ـ سِن ـ اسبقها بواو وسين اخرى وافتح السينين ـ سوسن ـ. السّن يقرض كل شيء وينخره السوس. السوسن امرأةٌ وزهر. تملأ رائحته خلايا الروح. تسلّل عطر الفتاة إلى روحي مذ جلستْ. ثم حاولتُ اكتشاف ما يدور في رأسها. كانت عيناها تخترقان زجاج النافذة. اذا كانتا مفتوحتين فانها تتفرج على الأشياء وقد لا ترى شيئاً. اذا كانتا مغلقتين فهي

مسكـونـةٌ بنعـاس الصباح السلطان، أو ربما تفكر في حبيب ستراه بعد قليل. بعد عام بعـد عامـين وجيـل. أو تتخيـل رجلاً ما. كل شيء في الكون رجل. اعمدة الهـاتف. الأشجـار. الكتـاب. المرآة. العصافير. المقعـد. الهاتف. آه. ذكرتُ العصـافـير. كل موسم ولـه طقسه في الصيد. التين. التوت. القمح. الزيتون. وكـل عصفـور له طقسه المميز. الدوري. البُرُّقه. الطَّبَلْ. أبوزريق. الزَّرعيه.. نخرج والشمس. نعود والشمس. قرية هادئة لايستفزها سوى بعض المشاكسات العابرة. شاب يتحرش بفتاة تحمل جرتها على رأسها في طريق العين. تحمل حزمة الحطب في صبـاح نديّ. حمارٌ أوغـل في حقـل قمـح. فرح مفـاجيء. حزن مفـاجيء. كل شيء مفـاجيء في القرية. مثل كل البلاد الصغيرة في أي مكان. حين أصبحتُ أرقبُ عانتي كل يوم. رُحتُ انتظـر بلهفـةٍ انهـمار أول قطرةٍ بيضاء. تهزني الـرعشـة لكن الأبيض لا ينهمـر. وحـين رأيتُ الدم يوما هدني الخوف لعدة ايـام. وعنـد المجـازفـة الأولى بعدها انهمرت قطرتان شفافتان. قفزت في الهواء. صرتُ رجـلاً. أستطيـع أن أحمـل النبـوت وأمشي كالرجال. استطيع الدخول في حلقـة الـدبكـة حتى وان كنتُ الأخـير. ستراني البنات اقفز في الهواء. ربما سأقفز اعلى من الـرجـال، واضـرب قدمي في الأرض في توافق مع قدم (اللّويح). ارفع رأسي ناحية سـطوح النساء المزغردات حين نغني في الحلقة قبل القفزة الطويلة.

طُلّي عليّ من الشباك.

وشوفي سنسلة موسي.

وأستطيـع التحـرش بأية صبيّة في طريق العين. وأشارك الشباب اغتصاب اليهـوديـات عنـد التحـرير. لكن جارتنا ظلت أميرة الصورة العارية في وحدتي. وظلت رفيقـةُ المقعـد هاجسـاً صباحياً مربكاً. لماذا تكون عيناها واسعتين الى هذا الحد؟ لو لم تغطي جفنيها بالأخضر الذي ليس كالربيع تماماً، لقلتُ انها غجرية. مثـل تلك التي صعـدت رقصـاً متوحشاً إلى السماء. ببطء. ببطء. جسدها يهتز. بحـر يتمـوج كأنـما هو مزيـج من خمرةٍ معتقة. أشجار تتمايل سكرى بخمرة الريح

المسائية. صدرها اكثر من ذلك. لو خلعتْ قميصها لارتفع اللهب في الأفق. وبانت شعلات فيزوف. كنتُ اسمع هسيس النار بوضوح. النار في الصدر. النار في الرأس. النار في النار. النار في الباص. حين صاح الولد ـ عَوجان ـ. تذكّرتُ القصص التي فسّرت الاسم. بعضهم ردّ ذلك لاعوجاج الحي الذي يُشبه «كوع» ماسورة ماء. بعضهم قال ان الاسم أطلق على الضاحية في الأيام الأولى. حين كانت تشبه البرية وهي بعيدة عن المدينة. سمعوا أصواتاً فقالوا ـ عوى جان ـ. جائز. كان «الجان» صديقاً لفاطمة. كانت تغضب وتفرح. تبكي وتضحك دون ان يعرف أحد سبباً. نتبعها نحن الفتيان إلى البرّية. نطلب منها في البدء أن تُرينا. احياناً تفعل وهي تضحك. مرّة. مرتين واكثر. احياناً ترفض. نركض خلفها ونردد.

ـ «ورّينا».

تسرع في الركض. تشتعل الرغبة اكثر فينا. جنون يطارد الجنون. تتوقف فجأة. تستدير. نصاب بالذعر. لا نهرب. ينبثق في اعماقنا أمل مفاجيء. سترفع الآن ثوبها وينتهي الأمر. مرة. مرتين واكثر. لكن عينيها تُصابان بالحمرةِ الطائشة. تنحني. تلتقط حجرين او اكثر. تهجم. نهرب. نحن أسرع منها لكنا نبذل جهداً اكبر مع الخوف. هي تعرف ذلك لكن لا تتوقف. تقذف آثارنا بالحجارة. تصيب رؤوسنا بصرخاتٍ غامضة. نصل إلى القرية. نشعر بالأمن. لكنها تواصل الركض. نتفرق. كلٌ يذهب في حارةٍ وزقاقٍ مختلف. نتجمع بعد دقائق لاهثين. تختفي هي. كل بيت محتمل. تتحدث بهدوء وترش الملح على رأسها. تفعل ذلك لذكر الجان الذي يلحس شعرها بلسانه الأسود الطويل. ينظفها من رماد الطوابين التي تنام فيها حتى تخرج عروساً في الصباح إلى البرّية. يأخذها تحت شجرة زيتون أو خروب متهدلة الأغصان. هي قالت. واسمه غير معروف. يسألونها فتقول:

ـ سيدي.

اكثر من امرأة قالت انها رأتها تنام وفخذاها متباعدان. تطلق صرخات متسارعة. يخرج من فمها لعاب يسيل على الأرض. يغطي شفتيها زبد ابيض كالموج. تشدُّ شعرها بيديها فتخلع منه الكثير. دقائق ثم تهدأ. فعلها الجان وعوى فقالوا: عوى جان. وقال الولد.

ـ عَوَجان.

ثم تحرك الباص. لم ترتفع عيناي عن الحروف المتناثرة. عدت من ريوديجانير و وسرتاو. كسرت «الباء». بن. ابن. بن بيلّلا. أمضى وقتاً مقاتلاً وأطول منه في السجن. أحببناه ولم نكره الآخر. كيف نحب شخصاً وجلاده في وقت واحد؟ عجيب. لا نفكر. نفكر احياناً. الفتاة التي على المقعد حتماً تفكر في حبيبها. لو كنا في اوروبا لسألتها. هنا لا أجرؤ. أجرؤ. بحركةٍ مفاجئةٍ كانت يدي تُلامسُ ذراعها. ليس اللحم بل الثوب. لم تتحرك. لم تضطرب. قلتُ في نفسي: لم تُحس باصابعي. ضغطتُ قليلاً. لم تنفض يدها كعصفور. قلتُ: اذن تقبل ذلك. سُرِرْتُ واستعد خيالي للجموح. المكان. الزمان. الكلمات. الآه. كل ما هو غامض وواضح. فجأةً رأيت يدها ترتفع وتمسك ماسورة الحديد البيضاء التي امامنا. ظلت أصابعي تحس بكل شيء. اهتز قلبي. تذكرت ذلك النوع من الألم ـ فانتوم بين ـ الألم الشجي. الوهمي. الـ . . . طريف. . يحدث عند بتر الأعضاء في الجسد. يقول المريض ان رأس الابهام يشتعل ماً والابهام غير موجود. شبح. فانتوم. عن أي بعدٍ تُصيب؟ نسيتُ ذلك. (الإف ١٦) ابعد. أقوى. لم تُبق جداراً في عين الحلوة والرشيدية وغيرهما. وحين تقدم قائد وحدة المدرعات لدخول عين الحلوة. رآه انقاضاً بعضها فوق بعض. مجبولة بالوحشة والدم والجثث. قال ذات مقابلة:

ـ خيل إليّ، وإلى كل من رآه، ان الفئران والحشرات انتهت. لكن المصيبة أن الفدائيين كانوا هناك. احياء يقفزون مثل القطط. بعينيَّ رأيتهم. لم أصدق. وأمرت الجميع بالتقدم. لكن الفدائيين راحوا يلدغون كما يريدون من أين

جاؤوا؟ لا اعـرف. اصطـادوا دبـابـاتي واحدة واحدة. تراجعت لتجميع القوات ريثـما يعـاود الطـيران قصف المخيم بناء على طلبي. وفعل. فتقدمت مرة اخرى حيث أصبت. حمداً لله. لم افقـد سوى ساقي اليسـرى فقـط. هنـالـك من فقـد الاثنتـين او العينـين. هنـالـك من مات. بينهم اصدقاء كثيرون. ليس في موقعي فقط. في مواقع اخرى. الرائد جوني هنريك قائد الوحدة الأول لاحتلال القلعة. الجنـرال آدم. كل مكـان جحيم. سمعتُ عن جنـدي رافـع ذراعيـه فوق حوض دبـابتـه في صيـدا فجاءته القذيفة. ورفعتْ الفتاة ذراعها فجاءني الرعب أصابعي تحس بكـل شيء. خطـر ببـالي ان يكون لها ذراعان في جهةٍ واحدة. التفتُ كانت يدي تلامس كُمَّ عطفهـا. شعـرتُ بالتلاشي. وبجسدي الخفيف حتى ظننتُ ان في اسـتطـاعتي ان أطـيـر. بصقتُ على نفسي وعليهـا وقلت: هذه لها عشيق. سيحضنهـا هذا الصبـاح. بعـد قليـل. ليس بعـد عامٍ، بعد عامين وجيل. هذا الصبـاح. يُقبلهـا باشتهـاء. لا اعـرف اين. يجذبها إلى صدره. ينسحق النهدان تحت الثـوب أوخارجـه. لا اعرف. لكنها سترتعش. تنتفض تحاول التملص من ذراعيـه خوفاً من الخـوف. لكنها تستسلم للذة الهابطة كسيل مفاجيء. وماعلاقتي بالأمـر؟ استطيـع أن افعل ما اشاء بالحروف. اكتبُ قصةً على سبيل المثال. لكن ذلك صعب. الباء والنون والفتاة. الباء والنون فقط. الفتاة لا تكترث. تكترث. أعرفهن جيداً، يدعين اللامبالاة والنار في ارواحهن. أراهن انها تفكر فيَّ الآن. لا بد رأت وجهي. شفتي السفلى. شهية. قالت امرأة عضتها ذات قبلة. عادت يد الفتاة بيننا ثم ارتفعت من جديد. ما الذي تُريده الحقيرةُ بالضبط؟ وما ادراني؟ لو يعـرف المـرء كل شيء عن أي شيء. فليكن. سأعيـد الكرة مرة أخرى. لتذهب الحروفُ إلى جهنم. آه. ليس قبل استنفاذ الباء والنون. بن. اظهر. ابتعد. بنتم وبنـا. ولا جفت مآقينـا. كاذب. جفت مآقينـا سريعـاً وصفت عيـوننـا فرأت أخريات. الشعر كذب. اعذب الشعر اكذبه. الآخر لا...

ومن المحيط إلى الجحيم

من الجحيم إلى الخليج
شاهدتُ مشنقةً فقط.
شاهدتُ مشنقةً بحبلٍ واحدٍ.
من اجلِ مليونيْ عنقْ..

سكين حادة. رجّة في القلب. صادق. وقد يكون للباء والنون معانٍ أخرى سأحاول اكتشافها حين أعود إلى البيت. لكني حين صرتُ في الشارع قررت ألاّ اعود إلى البيت. ذُبت في زحام الصباح. اصطدمتُ بالاكتاف. الساعات جميلة. عشرات المحال تنتشر في الشارع. الطريف ان اكثر الساعات الواناً مزركشة تجد اليوم والتاريخ فيها بالعربية. يعترفون بلغتنا في الساعات. ولا يفهمونها حين نطلب الماء والدواء وغيمة أمن. كلاب. والعرب اكثر «كلبنه» اليكتر ونية موسيقية. هابي بيرث دي تويو. منبه كناري. قديماً بالظل كانوا يعرفون الوقت. يؤدون الصلاة. يحاربون. ينتصرون. ونحن نملك العقول الآلية ولا نعرف الوقت الملائم لأي شيء. السابعة والنصف في يدي. لأي شيء يصلح هذا الوقت؟ للتسكع؟ لا. على الرغم من انني افعل ذلك. للنزهة؟ لا. للعمل؟ ربما. على الرغم من انني لن اذهب هذا الصباح. للحب؟ لا. نعم. تليق الاوقات جميعها بالحب. حبيبتي كانت تجيء في التاسعة صباحاً. نظل معاً حتى الثالثة بعد الظهر. ستُ ساعات. دوام حكومي. نستلقي عاريين حتى من الخجل الكاذب، جسدين يتلصقان بحرارة من يطلب ماء بعد عمر صحراوي. أحملها فنطوف في العالم الذي لم نره إلاّ ونحن هكذا. قلتُ لها مرة:

ـ أراهن ان هنالك أماكن لم يكتشفها الانسان بعد.

قالت ضاحكة:

ـ أين مثلاً:

قلت:

ـ لا ادري. ربما في الاردن..

ضحكتْ وهي تقول:

ـ يا حبيبي قل غير ذلك. قالوا «عد غنماتك يا جحا...».

قلتُ:

ـ امريكا الجنوبية. افريقيا. آسيا. تصوري الهند والصين. جبال الأنديز. تذكرين الفيلم الذي رأيناه حيث تحطمت الطائرة هناك، فأكل الاحياء لحم اقربائهم واصدقائهم الأموات. كم ظلوا حتى عثروا على طريق بالصدفة؟ «والله بمحض الصدفة». قال ان القمة توقيتاً جاءت بعد المجزرة. كان يعني مجزرة الزعتر التي تمت تحت اشراف الصليب الأحمر الدولي في الدكوانة. كم مجزرة وقمة؟. المشكلة ان اسم حبيبتي وردة. مولعة بالترتيب. ملابسها. مشيتها. أحرفها. شعرها. قُبلتها في البداية. بعد ذلك فوضى حارقة. خجولة في البدء ثم صريحة حتى الخجل. مذ عرفتها لم تستطع إلاَّ أن تكون اثنتين. واحدة في العمل والسينما والمطعم والشارع. واحدة في الغرفة. بعد اسبوع من رؤيتها لأول مرةٍ اخذتها جانباً في قاعة المحاضرات قبل مجيء المحاضر. لم اخطط لشيء. قلتُ بهدوء.

ـ ألا تلاحظين اننا نسكب الوقت كالماء دون حساب لضياعه؟أعني بالضبط أن كلينا لديه الرغبة في الآخر. وعلينا ان نبوح بهذا الجنون. لأنفسنا على الأقل.

احمرت ودارت وقطبت وتمتمت وغضبت وضحكت وصمتت.

قلت بثقة:

ـ ألستُ مصيباً؟

هزت رأسها.

قلت ضاحكاً:

ـ الآن سأرقص.

قالت والحمرة في الوجه:

ـ لا تفضحنا

كان بعض الطلاب ينظرون بفضول. فقلت لها:

ـ ليسوا هنا. لو أنك لا ترينهم مثلي لقبلتُكِ الآن.

ابتعدت قليلاً. كأنما خشيت ان افعل ذلك. ولم افعل إلاَّ بعد وقتٍ طويل. قلت لها:

ـ تعالي معي.

فجاءت. مشت إلى جانبي وعيناها بين القدمين. وبرغم ذلك لاحظتْ الرؤوس التي تطل من الشبابيك. بعضها ثابت. بعضها يتأرجح كأنما يقف أصحابها على رؤوس أصابع الأقدام. أحمر وجهها ووصلنا قبّلتها امي بحنان. استراحتْ على مقعد مقابل السرير. راحت تتخلص من غبار «الوصوصات». ثم اخيراً نهضت فتطايرت بقاياه. دارت في الغرفة كأنما تحاول النفاذ خلف كل جزء فيها. قالت:

ـ سأُرتب الغرفة.

قلت:

ـ ليس الآن.

ـ الآن.

كنتُ على السرير حين عبرت من أمامي. أمسكتُ يدها. جذبتها فارتاحت إلى جانبي. تلامسنا. أحطتُها بذراعي. ضممتُها. اقتربتْ بوجهي. جاءت أمي. ووضعتُ رأسي بين راحتيّ. ذهبتْ أمي فقمتُ وتربّستُ الباب. قالت بفزع جميل.

ـ أمك... عيب.

تمددنا على السرير. صَرّ طالباً الهدوء. هدأت. رحتُ أسبح في محيطٍ وردي مثل سمكة رشيقة، وهي تسبح مثل بطةٍ بيضاء. فجأة مسَّتني مخالب رُخ الغضب. كانت عانتها ملساء. قلتُ بغضبي.

ـ الربّ يفهم اكثر منا. الطبيعةُ تعرف الطهارة والرّجس اكثر منا.

وفرحتُ في المرات اللاحقة، حين راح اللبلاب الناري الأشقر يرقص تحت سُرّتها. دفنتُ وجهي هناك ولم أرفعه. لكن يديها فعلتا ذلك واحتضنتني. لم أتصور يوماً أن لساني سيسبح في سُرّة امرأة بيضاء. حتى في حُمى التصورات لم يحدث ذلك. أقصى ما كان يصل إليه دماغي فخذين مستديرين. أفتح جسدي باتساع بحر لاحتواء تلك البلاد. مذاقُ السُّرة مختلف. كأنك توغل في البحر خفيفاً حتى اختفاء اليابسة. ترتدي زرقة السماء المغسولة بالغيم الراحل للتو. السُّرة كأس مليئة بالخمر لذة للشاربين ـ قال سليمان ـ. ورفيقة المقعد لا تعرف ذلك. أو تعرف. لا فرق. دعك منها. ضع نقطة إلى جانب نقطة الباء ترى (الين). عملة صعبة حسب اعتقادي. بالدينار الاردني لا تُساوي شيئاً. الين يُساوي فلسين تقريباً. الدينار يساوي ثلاثة دولارات ـ اصعب الأشياء ـ. من الأصعب؟ الدينار أم الين؟ يقولون الين. يربطون بينه وبين السيارات واجهزة الفيديو والتلفزيون الملون ذي الأنظمة المتعددة، والريموت كونترول والآلات الحاسبة. أربط أنا بين الين وهير وشيما. لم تكون صعوبة الين ثمناً للأجساد التي احترقت وتشوهت وتتشوه في هير وشيما؟ هذا هو السّر. فرمل السائق فجأة فكاد رأسي يضرب الماسورة البيضاء. اهتزت الفتاة. غضبتُ لهذي الطريقة في الوقوف. صوبت عينيَّ اللتين تفيضان غضباً إلى مرآة السائق. التقتا بعينيه. نسيتُ غضبي للوقوف المفاجيء، وتأجج غضبي لنظراته الحاقدة. ربما لا يتوقف حين يراني مرة اخرى على الشارع. هل يكون قريب الفتاة؟ ليكن. لم أسيء الأدب. لكني سأفعل. ليدخل الين في «. . . ي»، هو والقهوة وبيغ بن وبن غوريون وبن اليسار وبن. . عجيب. كم شخصاً توجد في اسمه هذه (البن)؟ معاوية. يزيد. معاوية الصغير. مروان. هشام. عبد الملك. سليمان. الوليد. زياد بن أبيه. عبيد الله بن زياد. طريف. عرف ابنه ولم يعرف أباه. والزبير وطلحة وعمرو بن العاص والحجاج بن يوسف. . يا الهي. من المحتمل أن يصطدم السائق بجدار اذا ظلت عيناه في المرآة. كيف يسير للأمام وينظر للخلف؟ سأنصح الفتاة بالنزول وركوب

سيارة اخرى. هذا السائق مجنون. نحن مجانين. من يرغمنا على الصعود معه؟ صرخ على الولد فاغلق الباب. حرك عصا (الجير) إلى الأمام بغضب. حين ارتفعت يده عن كُرةِ العصا الملون، كادت تضرب الزجاج الأمامي. ويبدو أنه ضغط بقوة على (دعسةِ) البنزين، فقفز الباص في الهواء، لم يقفز بالضبط. نفر من مكانه بقوة. لماذا هو غاضب؟ لم يبق إلاَّ القليل ونصل. أربعاً وعشرين ساعه ونسبح في بحر يافا. وينكح الشباب اجمل اليهوديات. ثم ينتفون عاناتهن الوسخة. شعر العانة حرام. وفي كل مرةٍ يهبط بنطالي أنظر فأرى زغباً خفيفاً وأغضب. لكن الزغب الذي يغطي بطن المرأة أجمل. لو أمدُّ يدي تحت قميص الفتاة سألمسه برفق. أكاد أصل ولم أفعل شيئاً. هل يجب؟ يجب. السائق غاضب. سأغضبه اكثر. سأرتمي على الفتاة وأحضنها. حتماً سيفقد صوابه. ربما ينقضّ عليَّ ويترك الباص سائراً حتى يفرم سيارة صغيرة او شجيرة جانبية خضراء. سأكون حذراً. الباب قريب. أبعثر شعرها. الطمها بأصابعي الخمسة على وجهها الأبيض. ثم افتح الباب واقفز. طبعاً للأمام. هكذا يفعل الجنود في الحروب. حين تقفز للأمام تركض عدة خطوات ولا تسقط. حين تقفز للخلف تسقط. دائماً علمونا القفز للخلف. وكأن علينا تحطيم الرقم القياسي في الوثب العالي أو الزانه. الزّانةُ لا تنكسر لأنها مقطوعة من خشب الزان. والزنزانةُ لا تنكسر لأنها من الحديد. من يستطيع ان يعرف عدد الزنزانات في العالم؟ نقرأ في الصحف عن أجمل كلب وشنب وقبعة. عن اضخم أو أطول أو اقصر رجل أو امرأة. عن عدد السيارات القديمةَ منذ بداية العشرين. ولا نقرأ عن عدد السجناء السياسيين أو عدد الزنازين وغرف التوقيف. لكن الولد تمسمر أمام الباب المغلق. قبل قليل كان يمشي جيئة وذهاباً في الممر. يأخذ نقوداً ويُعيد أخرى. يضع اوراق النقود في فمه، أو بين أصابعه حين يكون فمه مشغولاً بالسيجارة. «بطانَةُ» جيبه الوسخة من بقايا نثار التبغ و«الترمس» المبلول، تضرب المقاعد والأكتاف. سَحّاب بنطاله

هابط إلى الدّرك الاسفل. لا اعتقد أنه دائماً ينساه. هو لا يكترث. يعرف لكن لا يكترث. كدتُ اقول له ذلك، لكني عدلت. أفسد كلّ شيء. فأر حقير. الفئران وحدها تفعل ذلك فهو فأر. والفتاة حائط. والسائق مجنون. وأنا ملفوف في قماش ابيض. في صندوق خشبي باذرع أربع. والصندوق في العربة. القطن في الاذنين والشرج. العينان مغلقتان. لكن صوتاً بعيداً يتسلل عبر ألياف القطن. قدّرتُ ان مكبّر الصوت الذي يبث الآيات القرآنية وهو مثبت على العربة كان قوياً. كان كذلك فعلاً. حتى انني ميزت (بين ايديهم سدّاً ومن خلفهم سدّاً). وسدود الله مثل أيامه. لا تشبه السد العالي أو سد الفرات أو سد الملك طلال. ان اليوم عند الله بالف سنةٍ مما تعدون. فما بالك بالسد. ربما كان قضيب الحديد في سد الله بالفٍ مما نعرف او اكثر. ربما كان السد بالفٍ من سدودنا. وماذا لو ينهار واحد هذه السدود. آه. تذكرت. ربما تكون الطوفانات المرعبة لدينا نتيجة ذلك. ربما. هو اعلم. ببطء ظلت الجنازة تمشي نحو المقبرة. كان ابي يبكي بصمت. وهم حولي صامتون في العربة. يشعرون بالحزن. ربما بالفرح. لا أحد يعرف الأشياء في النفوس إلاّ أصحابها. كدتُ أضحك. لم أفعل. ربما لم استطع. قديماً كنتُ أفعل. كنت في الحادية عشرة وكسور. وجارتنا تكبر بي بعامين أو ثلاثة رأيت عُريها الحارق عدة مرات. ممتلئة الجسم ولا عظمةٌ بارزة. ذهبنا إلى البرية عدة مراتٍ معاً. في الربيع الدافيء. ترفع فستانها حتى الخصر وتقفز في (جهير) الماء المتبقي من مطر الشتاء في الوادي الطري. يعتريني الفرح والخوف والغضب والحزن. أشياء تتصادم في صدري فلا أتحرك. أحس بدمي يصرخ. يطرق ابواب الجسد طالباً الخروج. ابقى جامداً عيناي جاحظتان. تغوصان تحت الماء. تلمسان نعومة الفخذين بهدوء. تنزلقان إلى اسفل سرّتها. أسفل. أسفل. أشعر بالحمى. وحين انحنت ذات يومٍ في الماء ثم استقامت. ورفعت تلك القطعة الصغيرة المزركشة. قالت ضاحكة وهي تُشير إليّ:

ـ أنشره في الشمس.

كانت زفـرة واحـدة من صدري كافية لتحويله إلى حفنةٍ صغيرة من رماد. امسكتـه بيـديَّ كما أمسـك عصفـوراً ملونـاً ملأ الحزن عينيه. وضعته على غصنٍ قريبٍ يكسوه ضوء الشمس. جُنّتْ عيناي وهما تلاحقان اعلى الفخذين في الماء..

ـ نجمه.

صحت بأعلى صوتي. التفتتْ ضاحكة ورشقتني بحفنة ماء. قلتُ ببر ود عجيب.

ـ أريد أن أسبح.

قالت ضاحكة:

ـ حين أخرج

صرختُ فيها وأنا اقترب من حافة الماء:

ـ «الجهير واسع».

صاحت بعد أن غطست في الماء وارتفعت:

ـ انتظر قليلاً حتى يجف.

والتفتت إلى القطعـة المـزركشـة على الغصن القريب. انتظرتُ كل دقيقة كنت ألمسه فاشتعل. وأنا أدعي أمامها محاولة معرفة نسبة الجفاف. صحتُ بعد لحظات:

ـ لقد جف.

ولم يكن كذلك فعلاً. قالت ضاحكة:

ـ ضعه هنا.

وأشارت إلى حافة «الجهير». ستخرج الآن بعريها الخرافي. وتشرب عيناي جسدها حتى اتشكل سُحُباً ملونة تمطر في كل مكان. هكذا أظنني شعرت في تلك اللحظة. لكنها صاحت ضاحكة:

ـ اذهب.

قلتُ في نفسي : الموت اقرب يا ولد. قلتُ لها :

ـ إلى اين؟

ـ وراء الأشجار.

جلستُ على حافة الماء ضاحكاً. اختفت غمازتها من الخد الأيسر. حزنتُ لذلك. تلك الغمازة لا تفارق مخيلتي كلما أرى امرأة ضاحكة. وفي القرية كثيراً ما تصورتُ غمازتها منطقة محرمة. عضواً صعد من الظلمات إلى النور.

قالت بهدوء :

ـ يوسف. عيب. . .

قلت بهدوء لا اعرف من اين جاء.

ـ وحدي سأرى، ولن اقول شيئاً.

قالت هذه المرة بحروف معجونة بتوسل انثوي لذيذ :

ـ عيب.

صرخت وأنا أقف :

ـ ظلّي في الماء حتى الموت.

برقت الحيرةُ في عينيها الواسعتين. ثم قالت بتوسل اكثر من السابق :

ـ الله «يخليك».

في لحظة شعوري بالانتصار الكبير قفزتُ في الماء. تراجعتْ بذعر. تقدمتُ منها ضاحكاً. رفعت يدها في الهواء وقالت بخوفٍ انثوي مثير :

ـ سأخبر أمّك.

هجمتُ قائلاً :

ـ والشياطين.

لكن يدهـا دفعتني في صدري فسقطتُ في المـاء. نهضتُ فوجـدتُهـا تحاول الخروج، وفستانها يلتصق بجسدها الذي ظهر بحمرةِ حبات الخوخ قبل النضوج الأخـير. تقـدمتُ بهيـاج كلبٍ يركض خلف طفل في البكاء. دفعتني بقوةٍ اكبر.

تعثرتْ قدمي بحجر في القاع. فاحسستُ بألم في الأصبع الأكبر وأنا بعدُ تحت الماء. حين رفعتُ رأسي لآخذ بعض الهواء كانت تركض بين الأشجار. بدت عارية للوهلة الأولى. تحمل قطعتها المزركشة مثل قط يحمل فريسة ثمينة. خرجتُ منكسر النفس والاصبع. وقفتُ على حافة الماء. نفضتُ جسدي. كان ألم الكسْرين كبيراً. وبرغم ذلك صامت عيناي بيأسٍ بين الأشجار. رأيتُ صوت جسدها يرتطم بالفروع الخضراء. وقفتْ أمامي والغمازةُ في الخد. احرقتها بعينيَّ فلم تحترق. ربما لأنها كانت مبتلة بالماء بعد. اقتربتْ مني بهدوء وضحكتُها تحوِّلُ وجهها إلى اكبر من فتاةٍ صغيرة. بدت امرأة خارجة من حكايات الأميرات والجواري والف ليلة وليلة. امسكتْ بيدي وقالت كمن يداعب طفلاً:

ـ غضبتَ مني؟

لم أجب. كان سؤ الها طعنة أخرى فازداد الألم. اعادت وهي تهز يدي:

ـ هل غضبت؟

تمتمتُ بما لا اعرف، وحروفي تشرق بالدمع. فجأة انهمرتُ بكاء صامتاً. ضغطت يدُها يدي. قالت شيئاً لا اذكره ثم اقترحت عودتنا. ظلت سماتي سوداء. قالت بعتاب حاد:

ـ عيب. أنتَ طفل وأنا لا ادري عنك؟

ضرخت فجأة:

ـ أنا رجل؛ واذا لا تصدقين انظري.

كان الغضب يهزني. أمسكتُ بنطالي. لكنها قبضت على ذراعي بقوة. ونظرات غضب تهوي على روحي فهمدتُ. قالت بهدوء وضحكها تحاول أن تتعربش فوق الشفتين.

ـ طيب، لنذهب الآن.

ذهبنا. الصمت قاس وجميل. أتاح لي فرصة التفكير بالحروف. متعة. ليس ذلك سراً. في السينما. في المراحيض العامة. حروف نافرة. رسومات

مدهشة. اشياء نعرفها. لكنها اكبر في الرسم. اسماء. اعلانات. تلك اجمل الأشياء (عمري كذا. مطلوب كذا. ابيض. سأدفع مثلما يريد. على من يرغب أن ينتظرني في الساعة كذا. بعد ظهر يوم كذا وكذا في الساحة. وفي يده وردة حمراء). (مشكلتي في الطول. مثل حمار. كيف افعل. اخجل من الذهاب إلى طبيب. من يدلني له مكافأة). من هو الحمار المكتوب على المقعد؟ لم لا اسأل الحائط المسلح إلى جانبي؟ كيف يكتبون في الباص؟ يسرقون اللحظات ولا يراهم أحد. لو فعلتُ ذلك لاكتشفوني. دائماً يكتشفونني. في كروم الزيتون. في حقول القمح، الواسعة الخضراء، حيث لا يستطيع احد أن يراني وانا نائم. لكنهم يكتشفونني. ربما كنت الوحيد الذي اكتشفوه يضع حجراً خلف أتان. على الرغم من ان الجميع يفعلون. هذي الميزة جعلتني أفتش نفسي في الشوارع العربية عدة مرات. قد تكون في جيبي ورقة سرّية. منشورٌ سياسي. اشترطت على الأصدقاء تزويدي بما يلزم من اوراق ومنشوراتٍ في البيت. لكني المرة سأفعل. مددتُ يدي. تناولتُ قلماً صغيراً وحدقت فيه. نزعتُ الغطاء باضطراب، وعيني تجاهد كي ترى العينين الغجريتين. في الوقت الذي احاول فيه النفاذ إلى الولد المزروع امام الباب. فتصطدم عيني بسحّاب بنطاله الهابط إلى اسفل سافلين. كدتُ انهض وارفع سحّابه بقوةٍ ترفع الولد نفسه فيرتطم رأسه بسقف الباص. ولا بد لعيني من اشتباك مع عينيّ السائق في المرآة. مجنون. ربما لا ينظر أمامه مطلقاً. كيف يقود الباص ببراعة مدهشة؟ بوحشة مدهشة. ربما بعصبية مفرطة اغنيات الصباح لا تكفي وحدها. بحركةٍ سريعة رسمتُ خطاً. لم أرفع عينيَّ فوراً. فجأة تحرك الولد فانتفضتْ روحي. فضيحة. اذا قال شيئاً فان صوته سيخترق السقف والزجاج. وهو الثاني بعد السائق. السائق سوف يجد الفرصة المواتية. لكن الولد ذهب في الممر إلى مؤخرة الباص. جلس في زاوية المقعد الخلفي حيث الحمار لو صعد. الولد حمار. سأكتب ذلك وارسم عينيَّ الفتاة واكتب انها ـ عاهرة ـ. مرآة السائق واكتب انه مجنون. سحّاب الولد الهابط إلى اسفل سافلين. لون لباسه

الـداخـلي البـاهت . وليفعـل السائق ما يشاء . سأرسم وجهه . ذاك سهل . اكتب كلمـة ـ ملح ـ . ارسم خطـاً يتصل بأعلى اللام ويذهب محدباً إلى اليمين . قليلاً ثم يهبط إلى اسفل حتى يوازي ذنب الحاء . اجعل له زاوية . اهبط به إلى اسفل . وذنب الحـمار يهبـط . يتـوازى الخطان . عنق . في الأعلى وجه السائق بعين واحدةٍ هي الميم . . . ملح . صغـيراً تعلمتُ ذلـك . كنتُ ابتهـج على الـرغم من انني لا اجيد تحديد ملمح شخص ما . باستثناء ذلك لا ارسم عصفوراً أودجاجة . حمار . كأن ذلك سهل. الطائرة اسهل . سبحان ربي . اسطوانة مثل تلك التي على ابواب المـراحيض . ضع مثلثـين على الجـانبين وانتهى . يجب ألا يكون طرف الاسطوانة مستـديـراً . الاريكة لها منقار طويل . الميج بلا منقار طويل . هُم اسموها حرباً وانا كذلـك . مرت الطـائـرات فوق القـريـة ، احياناً فوق الحارة الشرقية . وكثيراً فوق وادي القتيـل كأنهـا تلامس اشجـاره الخضـراء . حين كبرنـا عرفنا انها تفعل ذلك حتى لا يكتشفها الرادار . ومرة كادت احداها ان تمس فروع شجرة «الدوم» الأزلية في ساحة القرية . احدهم قال :

ـ صاروخ عراقي .

آخر :

ـ القاهر .

ثالث :

ـ الظافر .

رابع :

ـ ملاك من عند الله .

ـ صاروخ روسي .

ـ ميراج .

كأنـما غربـل النـاس بضـربـةٍ واحـدةٍ فتفرقوا . امتلأت الحاراتُ بالضجيج الصـامت . راحت الجمـوع تصعـد الجبل إلى الكهوف . وظل (بوزعرور) بقمباز

الروزا المرقع، يطوف في الحارات والعصا في يده. وعلى وجهه (كمامة) الغاز السوداء. فبدا مثل ثعلب كبير. يصرخ من حين لآخر. يهز عصاه. والأطفال يركضون حوله، يتزاحمون أمامه بالتحديد. ينهرهم بلسانه. نمنا ثلاث ليالٍ في الجبل. النساء في الكهوف والرجال تحت أشجار الزيتون. انا تحت الزيتون. سهرتُ معهم حتى الثانية صباحاً ونمت. ذاك في الليلة الأولى. في الثانية لم اسمع اخبار الحادية عشرة صباحاً سألت عن آخر اخبار المعارك، وأين اصبح رجالنا، ولماذا لم يصلوا يافا حتى الآن؟ في الثالثة شعرتُ بالصبر يتسرب من صدور الرجال فلم أقل شيئاً. في الرابعة كنا في البيوت نغرقُ في الصمت. في اليوم الخامس تناثرت بعض الكلمات في الحارات. كان يوم الجمعة. لم يكن عند الظهر اربعون مُصَلِّيا في المسجد. دار المؤذن على البيوت لاستكمال النصاب القانوني. سبحانك ربي. النصاب القانوني لديك قبل الآخرين. لكن المؤذن عاد كئيباً يعلن بهدوء وحزن ان القيامة اوشكتْ. اقتربت الساعة وانشق القمر. احد الرجال الذي لم يقطع فرضاً طوال عمره.

سأل المؤذن بغضب:

ـ لمن نصلي؟

وكان لحظتها يثبت راية بيضاء على سطح البيت الطيني، امتثالاً لأوامر جيش الدفاع الاسرائيلي. في اليوم السادس كان أبي يجمع الأمتعة القليلة. قال لنا:

ـ حين نعبر النهر إلى الشرق سأرفع راية بيضاء لوجه الله.

قلت له:

ـ من أين الراية؟

قال بثقة:

ـ الحطة يا حمار.

لكنه لم ينزعها عن رأسه بعد أن عبر الجسر الخشبي السابح فوق النهر.

ونحن نتبعه. كلٌ منا يحمل في اليد اليسرى صرة ما، ويمسك الحبل الواصل بين الضفتين باليمنى غسل أبي وجهه بماء (الشريعة) والحطة فوق رأسه. كدتُ أذكّره بوعده فخفتُ منه. وخفت أن يراني أحد وأنا ارسم، فعدلتَ عن الرسم. قلت في نفسي: الكتابة تكفي. يثير ني القلب المثقوب بسهم أحمر. يقصدون الحب طبعاً. تحركتْ يدي. شطبتُه ببرود. أنا أقبلُ كل شيء سوى السهم الأحمر في القلب. أقبل الرسومات المدهشة. الاسطوانات. المثلثات. المعين. الكلام المباح وغير المباح. أول كلمة كتبتها: بنفسج. كدتُ أضيف: وأنت زهر حزين. لماذا يكون حزيناً وهو بلونه يبهج المقهور؟ ربما لأن الآخرين لا يتركون الجميل حيّاً إلا في الحزن، وإلاّ قتلوه. الأشجار في الحرب. يقصونها إلى مسافة خمسين متراً شرقاً وغرباً. بيارات البرتقال والليمون على طول الطريق التي تربط صيدا بصور. اربعون كيلومتراً من الأشجار نُشرت. أربعون الف متر. اربعة ملايين متر مربع. كم شجرة؟ كم زهرة كانت تنتظر دفقة ريح قادمة من زهرة اخرى؟ أف. كتبتها للتأفف. بضم الألف. لكني حين رأيتها أمامي كسرتُ الألف. ثم كتبت خلفه (مِيّه). طريف. (إف ميّه) لمخيم (الميه وميه). الـ (بي ٥٢) لفيتنام. المارينز للكاريبي واي مكان يلزم. كل بلد وسلاحها. يتفننون: انت جميلة: كتبتها وادرتُ وجهي إلى اليسار، فإذا بوجهها يكاد يلتصق بالزجاج. وعيناها تركضان خلف الأشياء الهاربة. لفظتُ العبارة بصوتٍ منخفض. رفعتْ يدها ضغطت (زراً) مستطيلاً. انبعثت عند السائق موسيقى عصفورية. خفف سرعته وتوقف. عليَّ أن اتنحى جانباً حتى تمر. لكني اتجهت إلى الباب. قفزت إلى الرصيف. عدّلت وضع سترتي و(لفحة) العنق الملونة. نزلَتْ بهدوء وتحرك الباص ـ إلى جهنم ـ قلتُ. كانت تقف إلى جواري في انتظار انقطاع حبل السيارات للحظة حتى تعبر الشارع. قلت ببرود:

ـ هل غضبت مني؟

قالت بحياد:

ـ وماذا فعلت لي حتى اغضب؟

قلتُ وانا اكبح غضبي :

ـ تحرشتُ بك في الباص . ألم تلاحظي؟

قالت ببر ود :

ـ لا

طفا غضبي على السطح تماماً فلم تنفع سدود نفسي . كدتُ اضربها . قلتُ بصوتٍ مرتفع :

ـ ألم أقل انك غجرية؟ وان عينيك اجمل بكثير بلا هذا الأخضر الذي ليس كالـربيـع تمامـاً؟ ألم أقـل انك حائط مسلح؟ عاهرة؟ ألم تُحسي بيدي وهي تضغط يدك؟ لماذا رفعتِ يدك اذن وامسكت بالماسورة البيضاء؟

قالت بنزق جميل :

ـ اخرس .

فهدأتُ وأنا أقول :

ـ هل تعرفين السائق؟ أقصد هل يعرفك هو؟

قالت بغضب :

ـ لا .

قلت :

ـ هو حيوان . ماذا تعملين؟ اقصد الوظيفة؟ معلمة . أليس كذلك؟

ـ لا يخصك هذا .

صرختُ :

يخصني . . .

وصمتنا لحظةً ثم تابعتُ بهدوء :

ـ اسمعي . أنا ذاهب الآن . تيليفوني كذا وكذا . اتصلي بعد ساعة . اسمي

«يوسف». قولي يوسف وكفى. يعرفونني في الدائرة. ثور أبرق. سوف نتحدث في التفاصيل.

انبثقت الدهشة بشكل متوتر وجميل في آن. قالت بنزقها السابق:

ـ وقح. اذهب وإلاّ...

ضحكتُ وانا اقول:

ـ اخبرتك اني ذاهب الآن. لا تنس الرقم أو الاسم. بعد ساعة..

ذهبتُ دون ان اسمع منها شيئاً يؤكد أو ينفي. كنتُ مسرعاً. لم أجد شيئاً في انتظاري. لا كمائن أو متاريس. بير وت سيجت بالمتاريس ولم يكف الله المؤمنين القتال. فعل ذلك عندما حفروا خندقاً حول المدينة واستعدوا. وبير وت استعدت. لكن الأعراب اشد كفراً ونفاقاً كل يوم يطلب احدهم عقد القمة العاجلة. ثم يتراجع بعد اقل من عشرين ساعة. ظنوا المقاومة ستنتهي خلال اسبوع. اثنين. شهر اذا حدثت معجزة. لكن (حساب القرايا لم يطابق حساب السرايا) أو العكس لا معجزة ولا ما يحزنون. رجال ونساء واطفال. حين خرجوا (تقمقمت) عاجلة في «فاس». يليق الاسم بها. وقرروا: وانا قررتُ ألاّ اذهب للعمل بعد ان تسكّعتُ قليلاً. قبل ذلك قررت. وسألت نفسي: هل ستتصل أم لا؟ وماذا سأقول حينها؟ اين التفاصيل؟ لا ضرورة للكلمات التي تشبه الشاي حين يجف على الجسد. هي جميلة. ما في ذلك شك. سأقول ذلك. مرت ساعة. دقائق بعدها. انتصب شرطي امامي. قال بوضوح:

ـ يوسف. أليس كذلك؟

ـ نعم.

ـ تعال.

نسيتُ الفتاة. لم أسرق. لم أقتل. لم أزنِ. حين دخلتُ المخفر كانت هناك. انسكب في داخلي خوف كبير. قال الضابط وهو يُشير اليها.

ـ تقول انك تحرشت بها؟

حدقتُ في وجهها. فوجئت بالأخضر غائباً عن جفنيها. غجرية. بنت الكلب. سمعت كلامي واشتكت. سألني الرجل مرةً اخرى.

ـ هل فعلتَ ذلك؟

قلت ببرود:

ـ ربما.

فغضب. قالت هي:

ـ عيناي اجمل دون الأخضر. غجرية. حائط مسلح. ويدك تضغط يدي...

إلى هنا كان الأمر مقبولاً. على الرصيف قلتُ ذلك. لكنها تابعت.

ـ والسائق مجنون. الولد فأر. حمار. والقلب المثقوب بسهم.. صاح الولد في الباص.

ـ «الطلعة».

هنا انزل كل يوم. قفز قلبي كضفدعةٍ إلى الماء. قفزت إلى الرصيف. سرتُ بهدوء وبطء. كنتُ متأخراً. رآني المدير لم أقل شيئاً حين سألني عن سبب تأخري اليومي. جلستُ على مقعد ووضعتُ رأسي بين راحتي. نمتُ طويلاً. رأيت الكثير في النوم. تصالحتُ مع الكوابيس. الكابوس جميل. فما ان تستيقظ حتى تصاب بفرحٍ ونشوةٍ لا تعادلها سوى امرأة. كان المارد يركض خلفي. وصلت إلى حافة جبل قائم ينام في حضنه واد سحيق. كان توازني ثملاً. راح جسدي ينثني. إلى الأمام والخلف. وقطع الحصى تنزلق تحت قدميَّ. ثم شعرت بشيء على كتفي. لا بد أن تكون كف المارد. التفتُ بحذرٍ وفزع. فتدحرج رأسي. وسمعت صوت ارتطامه بحجارة الوادي. فجأة صعد طير من الأسفل حتى حط على كتفي الأخرى. عرفت في الطير رأسي. كان اجمل من السابق بكثير.. صاح الولد:

آخر موقف..

برقت في رأسي فكـرة خنقـه حتى المـوت. توقف البـاص. راح الـركـاب يهبطون ببطء. انسللتُ بينهم وأنا احاذر أن أدوس ثوب امرأةٍ يكنس ارض الباص الـوسخـة. ذُبت بين الجمـوع على الـرصيف المتمـوج. حينهـا قررتُ ألاّ اذهب للعمل. رحتُ اتسكع دون هدف على الاطلاق. صاح الولد وهو ينظر نحوي:

ـ آخر موقف يا أستاذ.

نظرتُ حولي. المقاعد فارغة. وأنا أذوب بين الجموع على الرصيف المائج. أصطـدم بالاكتـاف كيفـما اتفق. تغبتُ قليلاً. لن أذهب يعني لن اذهب حتى لو فصلوني. سيكون ذلك أفضل. كل اصدقائي يبدلون أعمالهم إلاّي ويستريحون. كأنني مربوط بجنزير إلى جدارٍ مسلح. حتى موظف الجوازات يستريح. له مهمة خاصـة. احـدهم يعبىء الـوثيقـة بالمعلومـات. آخـر يُلصق الصـورة في مكانها. مسؤول يضـع امضـاءه المميـز. اختصـاصيـون. المواطن يقدم طلباً فيستلم جواز سفره بعد سلسلةً من الاجراءات المعروفة والسّرية. دائرة الجوازات مثل مصنع سيـاراتٍ حديث. تدخـل القطـع من مكـان ما وتخرج بسائق من مكان آخر. كُرةُ ثلج تتدحرج إلى اسفل جبل ثلجي. السيارة جواز سفر. كُرةُ ثلج. جواز السفر كرة ثلج متدحرجة أو سيارة. قابلة للخلل في أية لحظة. بسبب معروف حيناً وغير معـروف احيـانـاً. جنـون ما تفكـر فيـه الآن. ليس جنـوناً. اذهب وكفى. ليكن الطـوفـان. أسـرعْ. تزداد الأكتـاف التي تصطدم بها. لا يهم. ها انت تصل قبل الثامنة بربع ساعة تقريباً. تدخل الدائرة بهدوء. تدير عينيك في الممر يميناً ويساراً لا أحد. يقابلك مراسل يحمل في يده ابريق شاي بدا فارغاً. يحدق فيك بفضول. تبتسم قليلاً، ثم لا تعـيره اهتـماماً فلا ينطق. تدخل احدى الغرف. فارغة تبدو. تنتقي مكتبـاً. تجلس خلفـه. هناك رزمة من جوازات السفر الجديدة. تخرج علبة سجائرك. تضعها أمامك. تتناول جوازاً وتفتحه بهدوء. الخانات معبأة. الإسم. الميـلاد. المكـان. التاريخ. الطول. اللون. العمل. علامات فارقة. تحيّرك هذه العلامات. هل يكتبون اعور للأعور؟ على الصفحة المقابلة قطعة جلاتين شفاف

تغطي اطار الصورة والصفحة كلها. في أعلى الصفحة صورة شخصية تتدلى وتلامس الورقة بمشبك حديدي صغير. تعرف الآن وظيفة الرجل الذي جلست مكانه، عليه ان يلصق الصورة في اطارها المرسوم. هذا كل شيء. ثم يعيد قطعة الجلاتين الشفاف لتلتصق بالورقة وتغطي الصورة وبعض المعلومات الأخرى. لا أختام على المكتب. ربما في أحد الجوارير. ربما كان ذلك من اختصاص مكتب آخر. تُقرر ان تقوم بالوظيفة. تفعل ذلك بهدوء كأنها وظيفتك منذ الف عام...

الاسم: فلان.

الصورة: تليق بالاسم.

يجب ألاّ تكون هنالك هُوَّة بين الاسم والشكل. كيف تُسمي امرأة (ماريّا) تلك التي «تسوسح» القبطان والبحرية. وهي تحلق ذقنها كل اسبوعين أو ثلاثة؟؟؟ كل شيء يرتبط بالآخر. الفلاح السويسري أو الألماني يقول لحبيبته: إخ لي باديخ. يعني: احبكِ. تبتهج الفلاحة يتورد خداها. تصبح الخاءات جميلة حينها. على الرغم من انها ليست كذلك في اذنٍ عربية. ثم ان هنالك شيئاً سرياً بين الاسم والدلالة. ربما بين الطبقات واللغة. لو قدموا لك شخصاً ايضاً في احد الفنادق الفخمة ثم قالوا:

ـ مثقال طحيمر الزعل.

أو

ـ عواد عبد ربه.

أو:

ـ أبو صابر الطريش.

لقلت لا.

لو قدموا لك عاملاً يحمل (تنكة الباطون) على كتفه ويصعد سُلّماً خشبياً عريضاً إلى الدور الثاني او الثالث، ثم قالوا:

ـ السيد شادي.

أو:

ـ الاستاذ جوني.

أو:

ـ المستمر إميل أوطوني أوماجد أو... لصرخت على الفور: لا، افعل ما تشاء. لا تخف. تتناول رزمة الجوازات وتنثرها ببرود أمامك. تنزع الصور جميعها فتسقط المشابك الحديدية. يشبه ذلك صوت البرد على زجاج نافذة. تلقي بالمشابك في حاوية بلاستيكية مغبرة. رجال. نساء. حليق. غير حليق. مدور. مستطيل. مثلث. اسمر. ابيض. شعر طويل. قصير. دلاس. أسد. ديسكو. ميش. كعكة.

تنزع غطاء الصورة. تقرأ المعلومات المقابلة بدقة:

الاسم: فلانة كذا وكذا وكذا. رُباعي.

المهنة: سكرتيرة.

الميلاد: ١٩٥٨م.

مطلوبة للخدمة العسكرية. تهمس لنفسك وتضحك. تحدق في الصور بتركيز كبير. تختار واحدة. تُلصقها بقوة. يبدو الرجل في الأربعين. صلعته ناعمة بعض الشيء. في خديه حفرتان صغيرتان ستكبر ان بعد وقت. ربما تسميهما زوجته (غمازتين). تتناول جوازاً آخر. الاسم: مذكر. تقذفه جانباً. تريد النساء. فتش جيداً. تجد واحداً. تقرأ. بدون تفكير تمسك بصورة شاب في الثلاثين تقريباً. شاربه اسود وعريض. يرتدي قميصاً خاكياً. يخترق روحك مثل الفاجعة والذي خلق الخلق انه هو. قال العقيد الجريح.

ـ كنا خمسة من كبار الضباط في مقر القيادة الجديد في الدامور. دعانا الجنرال يكتوئيل آدم لاجتماعٍ عاجل. كان غاضباً وهو يفرد الخرائط على طاولة أمامه. قال دون مقدمات.

ـ اسمعوا. شارون وبيغن يصرخان طوال الوقت لأنا لم نطهر الدامور بعد

بشكل نهائي. يريدوننا أن نفعل ذلك بأسرع ما يكون حتى نزحف شمالاً ونحاصر بيروت. وبخاصة أن القوات في القاطع الشرقي للعمليات قد سبقتنا. صحيح انهم تعرضوا لكمائن مميتة في بعض القرى. مثل (الزيت) و(عين عطا) ومثلث حاصبيا وغيرها. لكن سلاح الجو دمر كل شيء فتقدموا. بالاضافة إلى المساعدة التي قدمها حداد. لقد مهد لتقدمهم بقصفٍ مركز من (الخيام) و(مرجعيون) الوضع هنا يختلف. وبيغن وشارون لا يعرفان ذلك. الفلسطينيون الذين انسحبوا من (الرشيدية) و (البص) و (البرج الشمالي) وصور وحاصبيا والنبطية وجزين. كلهم وصلوا إلى صيدا والدامور وعين الحلوة. قواتنا تقطع الطريق نهاراً بين صيدا وعين الحلوة. وهم يقطعونها في الليل. لنا دورياتنا ولهم دورياتهم.

ثم تابع العقيد الجريح:

ـ كان آدم سريعاً في الحديث. وحروفه معجونة ببعض الغضب. قال إننا في أمسّ الحاجة إلى قوات جديدة. وعليهم في القيادة ان يدركوا ذلك.

لقد أرسلوا بعض القوات التي شاركت في حصار النبطية دون أن تشارك في دخولها... وفجأة كانوا أمامنا. خمسة أشباح تشيع الرعب في الروح. اثنان يحملان قاذفين من تلك التي يُجيدون استخدامها بشكل عجيب. حتى اطفالهم يتقنون التعامل معها. اثنان يحملان رشاشين صغيرين. يرتدي الأربعة ملابس تشبه جلد النمر. كانوا يبتسمون. شيء لا يُصدقه العقل. لقد شاركتُ في حروب كثيرة، وبقوات اقل مما وُضع تحت تصرفي في هذه الحرب. لكن. لم يحدث شيء كهذا من قبل. فكرت كالومض: من اين جاؤ وا وكيف؟ كيف دخلوا مقر القيادة بالذات، وانا اعرف ان وحدة من قوات غولاني تتمركز عند المدخل؟ كما ان البناية نفسها طُهرت قبل استخدامها. وفي مواجهتها ينتشر جنودنا في الشارع وعلى اسطح المنازل والأنقاض. الخامس يرتدي قميصاً خاكياً. يبدو في الثلاثين. له شارب اسود وعريض. علق في كتفه رشاشاً صغيراً وعلى خصره مسدساً وبضع قنابل متنوعة. كان يبدو قائدهم بلا شك. ويبتسم استمر الوضع هكذا لثوان

خلتُها دهراً. أن تعرف ان رصاصة ستنطلق بعد لحظةٍ وتستقر في دماغك بالتأكيد. ذاك امر لم أجربه من قبل. اكبر من كابوس. اكثر رعباً لأنك تعي جيداً انك لست نائماً، بل يقظاً تماماً. كان يُعزيني شيء واحد. يومض في رأسي ويختفي. من خلال الصمت المطبق وابتساماتهم الساخرة. قلت في نفسي: ينوون أسرنا. ذاك افضل من الموت. لكن احدهم لم ينطق. ويبدو ان الجنرال آدم فقد توازنه تحت وطأة الاحساس بالفاجعة. فما كان منه إلاّ أن مد يده إلى مسدسه ببطء. الحق اقول: كان انتحاراً لا غير. ماذا كان سيفعل بمسدسه امام هذا الجحيم المحيط بنا؟ لمحه أحد اثنين فاطلق عليه قذيفة مزقت جسده. ثم انهمر الرصاص والانفجارات دفعةً واحدة. سقطنا في بركة دم. لم يخطر ببالي انني سأعيش. ويبدو ان هذا ما ظنه المهاجمون انفسهم، وإلاّ لاضافوا رصاصات اخرى إلى رأسي. لكني عشت. اما الخمسة فلا أعرف ماذا حل بهم. ربما هربوا. ليس ذلك صعباً. فكّروا في دخولهم تجدوا الأمر بسيطاً. ربما ماتوا. ربما أسرتهم قواتنا مع ان ذلك صعب. انا ارجح موتهم أو هروبهم بالتساوي. . . تضع الصورة جانباً. تقول لنفسك: عيب. ابحث عن اسم يليق بها. تفتش الأسماء جميعها فلا تجد. يجب ان يكون اسمه مختلفاً. عروه. علي بن محمد. بابك الخرمي. الحارث. الظافر. القاهر. . .

ما بْتنفعنا كِلمة لو
القاهر والظافر في الجو
عبد الناصر يا جمال
فلسطين بعد القنال.

ذهبتا معاً، ارض كنعان. الجولان. لبنان. آن. الآن. الآن الآنَ وليس غداً. يبدو ان (آن) فير وز تشبه يوم الله. اقطع ذراعي ان كففت عن البكاء والرحيل. وتظل تلك المجنونة تصرخ في الاذاعات: الآن الآن. ربما تعني العودة إلى الاصل. الجزيرة. اذا كان ذلك كذلك فهي زرقاؤ نا. ومن يصدق؟ في

حزيران الأول لم نصدق سوى أحمد سعيد: تجوّع ياسمك البحر. احمل حقائبك يا أعور. أم كلثوم معكم في المعركة. قلتُ لابي.

ـ أم كلثوم تحارب.

فضحك.

ولماذا يكون اسم الرجل القاهر او الظافر؟ طز. من رآهما في حزيران أو أي شهر شمسي أو قمري ؟ من سمع عن واحد اجتاز الفضاء إلى فلسطين؟ تقصد صاروخاً وليس رئيساً. لم تسمع إلّا (بالكاتيوشا) و(الغراد) و مدافع الـ (١٥٥ملم)، وحرائق نتانيا ونهاريا ومستعمرات الشمال الفلسطيني. وبحزن تسأل نفسك: لماذا ترقص طائراتهم في سماواتنا دون اذن؟ ومن يدري فربما بإذن؟ والأدهى من ذلك انها خريجة مصانع متعددة الجنسيات. يقولون هنالك فرق بين القوات الدولية والمتعددة الجنسيات. صحيح. ولهذا حدثت مذابحنا في صبرا وشاتيلا. لو كانت هناك القوات الدولية لما حدث شيء. المتعددة الجنسيات لا يشمل اختصاصها المجازر الفلسطينية. والقوات الدولية لا يشمل اختصاصها منع جيش الدفاع من الاندفاع إلى الشمال. يقول البعض انهم رأوا القاهر والظافر في عرض عسكري امام السادات. ليس العرض الذي مات فيه وهو يتقلد ما لا يحصى من الأوسمة على الصدر لا تعرف عدد المعارك الانتحارية التي خاضها. ليلة الثورة كان في قاعة السينما بصحبة زوجته. خرج فوجد كل شيء جاهزاً. اكل حتى شبع. لا لم يشبع إلّا من رصاصٍ نظيف. ونفسر كل شيء. أمريكا فعلت. اسرائيل. دوره انتهى. صراع السلطة. لم نعد نثق حتى باصابعنا. حتى تفجير السفارة الأمريكية في بيروت لم يسلم من التأويل. افترضنا كل شيء سوى عربي نظيف واحد. ومقر القيادة الاسرائيلية في صيدا. واحتراق خمسماية جندي فيه. والذين القوا بانفسهم تحت دبابات اسرائيل باحزمتهم الناسفه. والذين لم يهربوا من النبطية ايام الحصار من الجهات الألف، باستثناء منفذ صغير اخلاه القائد الاسرائيلي علّ الفدائيين يهربون، وتخف المقاومة، فلم يهربوا. ظلوا تحت القصف

البري والجوي والكر والفر حتى دخلت الدبابات البلدة، فنازعوها على الشبر. تضع الصورة في جيبك. تنهض عن المقعد مرتعشاً. تتحرك باتجاه الباب. قبل ان تخرج كان المراسل واقفاً يُشير اليك وخلفه رجل كبير وشرطيان. قال احدهما:

ـ تعال.

فذهبت. وضع سوارين غليظين في يديك قبل صعودك العربة التي تحركت بعدها وانت بين الاثنين. في اللحظة التي كنتَ فيها تصطدم بالاكتاف على رصيف الصباح. وتناقش في رأسك فكرة العودة إلى البيت. وعدت.

تمددتُ على السرير المعدني قبالة المكتبة. دول فوق دول. والبحر في الرف العلوي. سينسكب ويحدث الطوفان. وابونا لا يقول ماذا كان يفعل في المباحث. يحققون معك أم تحقق مع شخص قرأ يوماً قصائد الزا؟ قصائد حب يا ابانا. لا بد كانوا يحققون معك. حق هم. الودعاء الطيبون سيرثون الأرض. أية أرض؟ أرضهم تعني. من اصغر حجر في الصين إلى آخر حبة رمل في كاليفورنيا. ارضهم يا ابانا. الودعاء الطيبون سيرثون. سكّن الراء. مراثي ومراثي ومراثي. هذه لنا، ونرثها أبا عن جد. انت محق هنا. ونلعن ايضاً. فوضى. ولم تقل بعد ماذا كنت تفعل في المباحث. لا تقل. انا اعرف.

ـ اعترف. كنت تقرأ العم (هو) والسيد قطب وأحد الآيات وأحد الروس. وكنت لا تقرأ، لكن لسانك كان يدور. أعرف. عن دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس ولاتعرف العقاب. طيب. لِم لَم تسأل؟ أي واحد أنت؟ صاحب الفلك أم الابن المتصل بابيه بروح قدسي أوحبل سري حتى تقوم الساعة؟ لا فرق. لا فُلكَ هنا. فالبحر في الأسفل. في اسفل السافلين. الاشجار فوق. فوق. أجمل دول العالم الأشجار. ما ان وصلت الجنازة الى بوابة المقبرة، حتى حملوني في صندوقي الخشبي على الأكتاف. كنتُ فوقهم. أعلى. أعلى. كنتُ بموازاة الأشجار التي تكبر بين القبور. تتغذى من الجثث البشرية. اعرف ذلك من قريتنا. كنا اطفالاً نتبع الجنازات. لا يُخيفنا الموت. بل الموتى. نتصنع كالكبار

الحزن ونضحك فيما بيننا. نرقب الطقوس واحداً واحداً. نستمع الى (الملقن) برعب. نتفرق بين القبور. هذا فلان. هذا علان. هذا ابن فلانة. ذاك هذه هذا. تلك... لا نترك قبراً دون أن نقطف عنه بضع وريقات من المير ميه الخضراء. يقول بعضنا:

ـ دم الميت فيها.

نخاف. نفتح افواهنا دهشة حين نرى (علي البرّي) يدسّ في فمه عدداً من الأوراق الخضر، ويضحك. مجنون. ونفعل مثله. قلت له ذات جنازة:

ـ يا علي. لماذا تسكنون هنا؟

قال وهو يقفز كالعادة:

ـ اسأل «الجحش».

كان يعني اباه، لكني سألته هو مرة اخرى:

ـ ألا تخاف؟

ضحك وقفز.

قلتُ بالحاح:

ـ طيب. لماذا تتأخر في القرية ليلاً، وانت تعرف ان الطريق الى بيتكم يعبر المقبرة؟ ربما تدوس قدماك رأساً أو بطناً.

قال وهو يقفز:

ـ انهم تحت الأرض.

قلت بثقة:

ـ لكنهم يخرجون ليلاً

قال:

ـ لم اشاهد أحداً.

صمتَ ثم أضاف:

ـ لو رأيتهم لسهرت معهم. وسألتهم عن الأفعى (أم قرون)، وعن (ناكر

ونكير) . واشكال (براطيمهم ودبساتيها ومحاميسهما واسياخهما الحمراء على النار) . أيقنت يومها أن اسمه يليق به . لا يخاف القبور. الافاعي . الحيوانات . ويحب الأشجار. اجمل دول العالم الأشجار. فوق. في الرف العلوي . سآخذ من كل زوجين اثنين . صنوبر. برتقال. كرز. كينياء . توت . سرو. زيتون . كرمه . لوز. عناب . . . كل الأصناف الدائمة الخضرة، والمغرمة بالعري للاستحمام في مطر الشتاء . الشجرة امرأة . تخلع ملابسها وتستحم . تتهدل اغصانها واوراقها الطرية الخضراء في المطر، مثل شعر امرأةٍ تحت «دوش» منعش . فركتُ يديَّ . رتّب . الرف الثاني أشجار. الثالث والرابع والخامس اشجار. السادس بحر. في الأفق سحب. ستمطر بعد قليل . لماذا اضاف اليها : بعد عامٍ ، بعد عامين وجيل؟ تكفي (القليل) للقيا . «والجيل» للمجازر. ذهبتُ إلى الزاوية . ساختبىء من الرعد والبرق . وحين تمطر سوف أتمشى في الشارع الممتد من الزاوية إلى المكتبة . في اليمين جثث . في اليسار جثث وضوء يتسلل من شباك الغرفة : تربسْ الباب . تربَسْته . جلستُ إلى الطاولة . وضعت كأساً مليئة بالهواء الذي لا أراه . وضعت فمي فوق الكأس وقلتُ :

ـ باسم الله .

ثم :

ـ باسم الشعب .

قال الملقن وهو يترب ع على حافة قبر ي :

ـ اسمع يا ابن عبد الله . سينزل عليك في هذي اللحظة ملكان غليظان شديدان رفيقان شفوقان . .

ارتعدتُ حين قال ـ غليظان شديدان ، ثم تساءلتُ : أين سيجلسان؟ واللحد بالكاد يتسع لي بشرط أن أنام جانباً؟ ضيق . ضيق أكثر مما يتصور الذي لم يره . وصفقتُ طويلاً حين قلتُ ـ باسم الشعب ـ ثم غمرني الحماس . وقفت وهتفت :

ـ يعيش.

وانا ارفع قبضتي في الهواء. لكني لم ارقص. رقصنا في ليالي القرية المعتمة. كنا نتحلق حول مذياع صغير لنسمع الشقيري او عبد الناصر أو احمد سعيد.

ـ أيها الاخوة.

نحن أخوة. عبد الناصر يقول ذلك. عبد الناصر أخي. لم اكن اتجاوز الحادية عشرة بعد. يغمرني ذاك الشعور العظيم بالاعتزاز والفخار. هو قال إنه أخي. نصفق. أصفق. نقفز في الهواء. أقفز. سنرى بلادنا والبحر. يحضن بعضنا بعضاً، كما نفعل الآن ـ أخي وأنا ـ عندما يُسجل فريقنا هدفاً في المرمى الآخر. وحضنتُ نفسي حين قلتُ ـ باسم الشعب ـ ثم جلستُ وقلت:

ـ باسم الحرية.

عدتُ اصفق من جديد، واضرب الافق بقبضتيّ. أثِبُ في الهواء مثل قردٍ سمين. والقبر ضيق. انتفضتُ لكن لا حراك. تحسستُ جسدي بلا يدين. تذكرتُ كلام جدي عن عذاب القبر. حاولتُ أن افتح عينيّ لأرى الافعى والمطارق والقضبان المحماة على النار.

ـ واسمع يا ابن عبد الله. سوف يسألانك الآن:

ـ من هو ربك؟

ومن هو نبيك؟

وما هو دينك؟

وما هي قِبلتك؟

ومن هو ابوك؟

تعبتُ من القفز في الهواء. جلست. بين أنفاسي قلت:

ـ باسم...

كدت انطق، ثم فكرت جيداً. اذا احتاج كل اسم إلى طقوسه فانني ساسقط ميتاً، واحترت. ماذا اقول؟ ايها الاخوة، سأصفق. ايها الرفاق،

أصفق. أيها الخنازير، اصفق أو اغضب وأدحش الحذاء في فمي.

ـ أيها الناس.

كثيرة اسئلة الملائكة. اعرف منها أبي. ذاك الذي أقسم بالكعبة التي لم يزرها أن يافا ستعود. ويسبح في (رأس العين) ان مدَّ الله في عمره. ويقطع المسافة بين (مجدل يابا) و(ملَبِّس) كل يوم. وأبي من قرية عزلاء. لكنها ليست منسية. هو من المجدل التي ذكرتها. قريبة من البحر. وهو يحب البحر، والأسماك. الشواطىء والبرتقال. أقسَمَ أنه كثيراً ما كان يعض البرتقال يعتصرها في فمه ثم يقذفها.

ـ «بطر».

هو قال. قلتُ له:

ـ ستظل تُقسم ان يافا ستعود، وأخشى أن تلحق بجدي قبل ذلك.

قال:

ـ سترى. اقول لك ان العرب سينتصرون. والروس لن يتخلوا عنا.

قال احدهم ضاحكاً وهو يسمع ابي يتحدث في السياسة قبل هزيمة حزيران:

ـ لو أنني لا أراه بعيني يُصلي لقلتُ انه بلشفي.

قلتُ لأبي:

ـ وماذا سيفعل (المسكوب؟)

تعمدتُ العودة للاسم الذي كان يستخدمه قبل الهزيمة. حينها تخيلتُ (المسكوب) رباً عظيماً قادراً على كل شيء. كانت اللفظة تخرج من فم ابي فخمة فاشعر بعظمتها. وحين استبدلها بعد الهزيمة قال ـ الروس. واكتشفتُ ان هذه لا تقل عن الأولى قوة وعظمة. ولم اسمع أبي يوماً يقول ـ الاتحاد السوفييتي ـ أو ـ روسيا ـ. لكنه يقول عن ذكريات الأربعينات بالحرف الواحد:

ـ الجيش الأحمر هو الذي دكَّ برلين.

قال أبي رداً على سؤالي:

ـ سترى. (لن يظل الميدان لحميدان)

قلتُ بخبث:

ـ ومن هو (حميدان)؟

قال بنزق الكبار:

ـ أمريكا (البَطرانة).

كدتُ أقول له: استبدل الألف بحرف الواو. أقصد الألف التي بعد الراء. لكني خجلت. ومن يدري؟ فربما فعل ذلك وحده.

قلتُ مستفزاً:

ـ تحركت امريكا مثلما تشاء، ولم يفعل (مسكوبك) شيئا.

قال بهدوء:

ـ الخير في الذي يأتي.

قلتُ كالسابق:

ـ بعد مجزرتين او ثلاث أخر؟

قال بانفعال:

ـ «فال الله ولا فالك».

قلتُ ببطء:

ـ طيب يا أبي. وبير ووووت؟

صمت قليلاً، ثم ابتسم وقال:

ـ «شوف». في هذه قصّروا.

ضحكت ثم قلتُ:

ـ وماذا كانوا سيفعلون؟

قال بغضب:

ـ أيّ شيء يحمي الفدائيين. ألسنا اصدقاءهم؟

ـ مثلاً يا أبي؟

قال بعصبية :

ـ لا اعرف . أي شيء . انذار مثل (الستة وخمسين) . جسر جوي . انزال . ألم تحرك امريكا «خراها» السادس إلى لبنان؟ ألم يدخلوا هم افغانستان؟ (وقفت علينا؟) .

قلت بمزيد من الاستفزاز:

ـ عن أي انـذارٍ تتحـدث؟ لقد كشف السادات النقاب عن الحقيقة، وقال ان امريكا هي التي اخرجت المعتدين الثلاثة .

قال بحدة :

ـ هذا رجـل يلعب في «خصيتيـه» . والله العظيم ان اخاك الصغير يفهم في السياسة اكثر منه .

صمتنا قليلاً . بعدها قلتُ بأناة وصبر .

ـ بماذا قاتـل الفـدائيـون؟ بالسـلاح الـروسي . مثلما قاتـل الفيتنـاميـون وانتصـروا . والسـانـدانيـون وانتصـروا . ولم تفعـل لهم روسيـا اكثر مما فعلت لنا . والفدائيون ليسوا دولة يا ابي . ولبنان ليست فلسطين حتى نطلبهم كأفغانستان .

قال بحدته السابقة :

ـ اسمـع . لا تظن انـك تحب الـروس أكثـر مني . لكن هذا كلام فارغ . وربك انهم كانوا قادرين على عمل كبير، لكني لا اعرف لماذا لم يفعلوا . على أية حال . ربك يُمهل ولا يُهمل .

أسعفني الملقن في الاجابات :

ـ قل لهما دون خوف :

الله ربي

والاسلام ديني

ومحمد نبيّي

والكعبة قبلتي

وابراهيم الخليل ابي .

همستُ لنفسي : ابراهيم الخليل . نوح . المسيح . سام . عبد المعطي .

ـ أيها الناس .

تكفي بعض عبارات الاستحسان . ثم اعرج على الوطن . ربما لا اكمل اللفظة حتى يعلو الصفير والتصفيق . كل حرف جمره . الحرفان بركان . الثلاثة جهنم . الوطن جهنم . حمراء أو خضراء لا فرق . كم جهنماً في الأرض؟ بعدد أعضاء الأمم المتحدة . اضافة إلى طمب الصغرى وطمب الكبرى وجُزر القمر . وآلاف (الجهنمات) في شوارع فلسطين ولبنان . وبما في ذلك الملايين الممددة على ارصفة الهند . والخلايا البشرية في هارلم وبروكلين . وبلايين الاليكترونات والبروتونات والنيوترونات في تمثال الحرية . وجهنم دانتي التي اشعلتها امرأة تدعى (بياتريس) . وجهنم التي تستقر بين اي نهدين صلبين وفي كل آه . فوضى . رتّبْ . كانت الروح تصرخ فلتصرخ . تعوي . لا ضرورة للأسماء . لا ضرورة للوطن . لا ضرورة للخُطب . هُنا مدرسة . يرتفع ضجيج التلاميذ . تهتز ارداف البنات والنهود المتمردة . يخرجون إلى الشوارع . انتشروا في المدى ولم ينسكبوا . امتلأ الأفق برائحة المطاط المحروق . لعلع الرصاص فطارت عصافير كثيرة ، وتعربشت الزغاريد على الأشجار . ولم يعودوا . دع المدرسة دع القلعة فهي حصينة . ثلاثماية جثة سقطت حولها . تسعون في الوجبة الأولى . قال احد السبعة الجرحى الذين لم يموتوا في تلك الوجبة . واسمه بالتحديد «دوف» .

ـ كانت تحت امرتي تسع دبابات سنتوريون ، وسبع عشرة ناقلة مدرعة . وحوالي تسعين جندياً بينهم سبعة ضباط برتب متوسطة وصغيرة . اعتقدتُ ان هنالك في القلعة ما لا يقل عن مئة فلسطيني . أو هكذا قيل لي . في حوالي السابعة والنصف صباحاً كنتُ مع قواتي على بعد عشرات الأمتار من الحصن ، دون أن نواجه أية مقاومة . نزل العديد من الجنود من مدرعاتهم واقتربوا مني والبسمات تعلو وجوههم . كان هنالك صمت مطبق . كنت ارد على بعض الاستفسارات للجنود

استعداداً لاقتحام الحصن. فُتحت علينا النار من كل جانب. امطرونا بالقذائف الصاروخية والبازوكا. وفتحوا نيران اسلحتهم الثقيلة علينا. تعالى الصراخ بين الجنود. لقد قُتل في الحال جميع الجنود الذين كانوا خارج مدرعاتهم. اخذت اصرخ بالجنود للتقهقر إلى الخلف لاعادة التنظيم والانتشار. لكنه لم يكن هناك مجال لذلك. فقد وقعنا جميعاً في المصيدة. اجهزة الارسال كانت معطلة، ولم استطع طلب نجدات. استمر تبادل إطلاق النار بيننا وبينهم حتى العاشرة ليلاً. في هذه الفترة وصلتنا تعزيزات كبيرة، وطلبت اخلاء الجرحى والقتلى من المكان. ولم يبق من قواتي سوى سبعة جنود فقط، من اصل التسعين. كما أبيدت الدبابات والمدرعات جميعها. «كان في القلعة ثلاثةٌ وثلاثون فلسطينياً. لم نأسر أي فدائي منهم لأنهم قاتلوا حتى الموت، ولم يستسلم أحد». هكذا قالوا لبيغن حين زار القلعة بعد احتلالها. لذا دع القلعة كما اقول. ثلاثة وثلاثون نبياً. ودع بير وت فالأنبياء كثر. وحين اقول (وَدَعْ). لا تشدد الدال وتكسرها. لكنك تفعل. فتنحني اشجار الأرز. تمطر النوافذ دمعاً يُعانق آثارهم ويملأ الثقوب التي خلفها الرصاص. ويزغردون. ويسافر الرصاص إلى السماء. والسفن إلى حيث يعلم الرب والثوار والعملاء والعاهرات والاذاعات والبنوك. يحملون حقائب مير وسة بتذكارات الأيام. الساعات والدقائق. الغبار. الدخان. الزلازل. الماء. الدواء. الكهرباء. الاصدقاء. البكاء. الغذاء. الهمزة التي لا تُنس كانت ألدّ الأعداء. العناق بعد انقشاع السحاب المعدني. يحملون الأسى والحقد والحب والجراح. لا يتسع المتوسط إلاّ لهم. لا سفائن اخرى تلوث ماءهم. اقول دع كل شيء فان لكل الأشياء مداراتها التي تحب فلا تخرج عنها. وتخرج احياناً فتمتلىء السماء بسحب الفوضى. الخروج انسكاب الروح على الرمل. والأشياء لها مواعيدها كالموت حين يجيء. كيف جاء هذا الصباح؟ ما شكله ولونه وحجمه؟ في الصّغر تخيلته افعى بقرنين ولم ارها. تخيلته ضبعاً. ولم أر الضبع. دُبّاً ولم أر الدب. ماردا مثل ذاك الذي حدثنا عنه ابي.

ـ خرجنا من «المجدل» إلى «ملبس» قبل الفجر. كنا ثلاثة. وفي الطريق رأيناه. عموداً اسود. قدماه على الأرض ورأسه في السماء، ثم اختفى.

سألته على الفور:

ـ هل خاف منكم؟

قال ضاحكاً:

ـ «أهبل». المارد لا يخاف بل يُخيف. لكن ماردنا كان مسلماً فذهب بأمر الله.

ـ وهل هنالك مارد كافر؟

قال بثقة:

ـ نعم. وله أنياب زرقاء طول الواحد منها سبعة أمتار.

ثم تخيلت الموت شيئاً حاراً يدخل في جوف الانسان ويحرق الروح. أو «كماشة» يُدخلها «عزرائيل» في الحلق وينتزع الروح. وسألت أبي عن الروح، فضحك وقالَ:

ـ عليه الصلاة والسلام لم يُجب حتى سأل الله عز وجل. «هي من عند الله».

قلت بإلحاح:

ـ كيف تكون؟

قال بغضب:

ـ اخرس، لا تكفر.

فخرستُ، وتمنيت لو أعرف الروح. لكني لم أعرفها إلاّ هذا الصباح. شيء في الإنسان يُصيبه العفن، فتخرج الأشياء من مداراتها وتهمد. تظل في مداراتها وتهمد. مزيج من الفوضى والفوضى تتجمع في الفوضى لتشكل كتلة من الفوضى بلا شكل محدد. كل جزء فوضى. كُل كُلٍّ فوضى، الولد: السائق. الفتاة. المرآة. العجلات، الشارع. الولد يقول: «آخر موقف». غبي. كل آخر ابتداء. كل ابتداء آخر، كل آخر آخر. كل ابتداء ابتداء. كل جزء جزء. كل جزء كل. كل كلٍّ جزء، يتوزع الواحد إلى مئة. ألف. ملايين مختلفة. والأطفال يقذفون

السيارات بالحجارة والأغاني. والرصاص يُعلن عن نفسه بوقاحة سكير مفرط في السُّكر. يَشبهون أقاربهم في مخيمات المنافي وساحات المجازر. اجازف أكثر؟ يشبهون الأطفال في كل مكان. يُحبون الحلوى والصخب. ويحبون الألعاب، لكنهم لا يلعبون سوى بالحجارة والنار. الحجارة محك الأطفال. تقرع أمك الباب. دعها. تقرع أشد من السابق. دعها. تنادي.

ـ اذهبي الآن.

ذهبتْ..

كانت ستقول:

ـ لماذا عدت باكرا إلى البيت؟

احفظها منذ ثلاثين عاما. تسأل من كل شيء. تحشر «بوزها» في كل أمر.

ـ النساء كذلك.

يقول الآخرون، ثم يسألون:

ـ هل رأيت امرأة صامتة؟

ـ رأيت.

ـ اذن فان عينيها لا تثبتان.

ـ تثبتان.

ـ مستحيل.

ـ الصور يا مجانين.

يضحكون.

ثم أضيف جادا:

ـ والفدائيات؟ من رأى دلال؟ لا أعني الصورة التي ترتدي العلم الفلسطيني، ويشبكها الناس بعلاقة مفاتيح السيارات، كما يعلقون قطعة ذهب في اعناقهم ويقولون «فلسطين». لماذا تكون فلسطين كذلك؟ أعني جغرافيا. قطعة مستطيلة. وماذا تشبه؟ كل بلد تشبه شيئا. حيوانا أو طيرا او حذاء بكعب طويل

كإيطاليا. الآن أدرك السر في شهرة الأحذية الايطالية. ما ان تلمس أي حذاء حتى يقترب البائع باسماً ليقول:

ـ طلياني.

وللمرأة:

ـ تلياني.

والمرأة تسأل جادة:

ـ اكيد تلياني؟

وكأنما ينتظر البائع هذا السؤال فيبتهج. «تلياني» المرأة رغبة حارقة ترتسم في عينيه اللتين ترقبان حركة شفتيها واهتزاز الصدر والانحناء.

«تلياني» المرأة حارة. أحرف من بياض اسفل العنق معبأة بالشبق... وفلسطين معبأة بالشبق. وأمي لا تعرف ذلك، فهي تعود إلى الباب. تطرقه من جديد. لو كانت «وردةً» لفتحت الباب وشاركتني الترتيب الأخير. علمتني ان المرأة غابة جميلة مليئة بالدروب الصغيرة المتعرجة. الدروب مغطاة بالأشجار والأعشاب والنباتات الكثيفة، وهي في حاجة لمن يكتشف تلك الدروب فيدهب فيها. أما الذي يحمل سيفا أو فأسا ويقطع الأغصان والسيقان ليفتح درباً ليست موجودة، فلن يفلح في الدخول. يتصبب عرقاً وينظر خلفه فيتحول إلى عمود من ملح. افهم كل شيء في الكتاب المقدس إلاّ عمود الملح. حتى حين قال الملقن:

ـ قل لهما.

وابراهيم الخليل ابي:

همستُ لنفسي: نسبة إلى مدينة الخليل. جاءها وحيداً من الشرق. اشفق عليه الكنعانيون واعطوه قطعة ارض هناك. دفن زوجته ثم اوصى اسحق ألا يتزوج من أهل كنعان حتى يظل نسله قوياً ليورثه الأرض التي وعده الرب ـ لك ولذريتك نعطيها ـ. ويعقوب، ذهب إلى الشرق وعاد، وعند النهر اشتبك مع الرب في عراك طويل، فاسماه الرب ـ اسرائيل ـ. أما اسماعيل فامه مصرية. منه

جئنا. أب يهودي وام مصرية ـ تقول التوراة ـ. يبدو أن ساره كانت أجمل بكثير من هاجر. وإلاّ كيف قطع ابراهيم المسافة بين الخليل ومكة بناء على طلب سارة. حيث ترك الاثنين ـ اسماعيل وامه ـ في وادٍ غير ذي زرع ـ وعاد؟ ولماذا نظرت زوجة لوط خلفها؟ وعمود الملح ينهار. لو كان من السُكر لقلنا آه. أما (الملح) فلا يصلح إلا للرسم. للوجه الذي كنا نرسمه. قبيحاً كوجه السائق. لا أحب الوجوه القبيحة. وجه (وردة) التي هبطت من السماء له عمق السماء. صفاؤه بعد انقشاع الغيوم وابتلال الأرض. احبك يا امرأة. برغم آلاف الأميال والساعات والجدران المتعددة الجنسيات. تعالي. ولا تجيء. أمي تجيء. لا أفتح الباب: لأني لن اضع رأسي في جهنم الصدر الخضراء كما افعل مع (ورده). لم اكن أبكي. لكن لساني بكى مثل طفل صغير. قلتُ لها ما لم أقله طيلة اربع وعشرين سنة. وكانت تداعب شعري. أمي لم تعد تفعل ذلك مذ بلغتُ السابعة أو الثامنة. كانت تقول بفخر يبين في عينيها وحروفها.

ـ لقد كبرت.

ونجمة كبرت. نجمةُ القرية التي ذهبت معها إلى البرية آلاف المرات، وفي الربيع ترفع ثوبها حتى الخصر وتغطس في الماء. كبرت. حتى ذهبت. وظل الفخذان المستديران، والثوب الملتصق بجسد حُمرته كحبات الخوخ قبل النضوج الأخير. وانا كبرت فعلا. فتحولتُ إلى قرص من عباد الشمس في حزيران. الأول لا الثاني. في الثاني أو بعده تحولتُ إلى لعبة يعبؤها اي شيء في اية لحظة. تبرد أطرافي ببطء. يعبر الطنين في الأذنين. بخفةٍ في البداية. يرتفع تدريجياً، شيئاً فشيئاً حتى يتحول إلى هدير في الرأس. ثم ينفجر البركان دفعةً واحدة. . . . نتجمع عشرة في (خازوق) صغير في رمل الصحراء. في غيوم الغبار. لا اعرف ان نام ابي وأمي متلاصقان. لم اسمع شيئاً. سمعتُ في الليالي بكاء النساء، ونشيج الرجال العذري. كنتُ أذهب حتى آخر (خازوق). أجلس على حجر صغير. أنظر خلفي. بعض الأضواء الطفولية تحبس العينين. اتساءل: كم عدد الناس

والخوازيق ومصابيح : الكاز؟ ما اسم اليوم والشهر والتاريخ والرمل القادم؟

سكن الرمل في العيون فاحمرت العيون. تسلل الرمل تحت الملابس فاستحالت الأجساد إلى خلايا نمل ثمل. اختلط الرمل بالحساء المطبوخ في وعاء ضخم يحج الناس إليه ثلاث مرات في اليوم. يمتد الطابور طويلاً كيوم الحشر ملوناً غير متناسق الأطوال والأحجام والأعمار. نساء. اطفال. شيوخ. فتيات. فتيان. شباب. والشرطي بعصاه الغليظة والسن الذهبية يتفرس في الوجوه. يبتسم للنساء. يُقطب جبينه للرجال والأولاد، ويهز العصا. يبطيء حين يمر امام امرأة أو فتاة. يبطيء حتى يكاد يتوقف أو يفعل. يشد قامته أمام الرجال. تبعث النساء أطفالهن إلى خيام التوزيع آلاف المرات في اليوم. يعودون لاهثين :

- حرامات.
- طناجر.
معلبات.
- بُقج
- بوابير.
- عجوة.

تهرع النساء. لا يعدن إلى الخوازيق إلّا بشيء ما، حتى وان كان شتيمة أو غمزة أو بسمة او عصا. قلتُ لأمي :

- انتظريني. سأقلب المخيم.

خرجتُ من الخازوق. ابتعدتُ عدة خطوات وصحت بأعلى صوتي :

- بُقج

وعدت إلى «خازوقنا». ارقب الحركة التي اشتعلت، كأن القيامة جاءت او ظهرت علاماتها الكبرى. ولا أخفي أن عينيّ أمي كانتا مصدقتين لما يجري. وقلت لأبي متوسلاً.

- قرش واحد فقط.

انحنى والتقط حجراً فهربتُ بين الخوازيق. أريد سيجارة. ذهبتُ أحوم حول خيام الشرطة والكشافة والمتطوعين العرب. خيام كبيرة تشبه خيمة السيرك التي رأيتها في المدينة فيما بعد. رآني متطوع وأنا انحني باحثاً عن عقب سيجارة. سألني بعطف:

ـ ماذا تريد؟

ـ ملأني الخجل من الاجابات المحتملة، ثم قلت بانكسار:

ـ حبة بندورة.

دخل خيمته فابتعدتُ إلى جهة اخرى. انحنيتُ مسرعاً فرآني شرطي. سألني:

ـ ماذا تسرق ايها العفريت؟

ولوّح بالعصا، فركضتُ نحو الشارع العام. في حمى الركض لمحت المتطوع ينظر نحوي وفي يده كرة حمراء. راحت يدي تمتد لكل سيارة عابرة.

توقفت ناقلة عسكرية عراقية. قال السائق بصوتٍ مرتفع:

ـ «لوين عيني»؟

ـ المدينة.

ـ اصعد.

صعدتُ. جلستُ إلى جانبه. سألني على الفور:

ـ من اين؟

ـ المجدل، قرب يافا.

ـ لكنك نازح.

قلتُ له نكتة الكبار:

ـ أنا عريف. لاجيء ونازح.

ـ من اين نزحتم؟

ـ رام الله. بالتحديد من احدى القرى التابعة لها.

ـ آه .

صمتَ فقلتُ ببرود :

ـ سكنا في بلاد كثيرة . أبي من المجدل . أمي من سلمه . اخي البكر جاء في المجدل ورحل مع والديّ وعمره عامان . كانت امي حامل . وضعت الذي يليه في احدى قرى «نابلس» . ثم حملت بي ووضعتني في مخيم (عقبة جبر) قرب أريحا . جاءت البقية في القرية التي منها جئنا إلى هنا .

تمتم شيئاً ولم أفهم . ثم سألني :

ـ في أي صف؟

ـ ثالث اعدادي .

ـ لماذا المدينة؟

ـ سأشتغل . نحن بحاجة ، ثم انني كرهت الصحراء والخوازيق .

نظر فجأة إليَّ وعاد يرقب الطريق :

ـ ماذا ستعمل؟

ـ أي شي .

ـ مثلاً؟

ـ المطاعم . الدكاكين . وغيرها .

عاد إلى الصمت لحظات ثم قال بأسى :

ـ لو لم يقصفنا الطيران في الغور لاختلف الأمر .

قلت بحزن :

ـ انتظرناكم طويلاً في القرية . وحين قال احدهم ان في مركز الناحية جنوداً قلنا على الفور «عراقيين» . ذهب ثلاثة شبان . المسافة لا تقل عن خمسة كيلومترات . عادوا الينا واجمين وقالوا :

ـ اسمعوا اذاعة اسرائيل وافعلوا ما يطلبون . ضعوا رايات بيض . اغلقوا النوافذ . لا يخرجن احد . الباقي سنعرفه حين يجيئون .

قال أبي :

ـ تأخر جيش الانقاذ، وإلّا لاختلف الأمر. كان المجاهدون ينتظرونه بصبر والمدن تسقط واحدة اثر اخرى.

وقال رجل حين كادت احدى الطائرات ان تمس فروع شجرة (الدوم) في الساحة.

ـ يا جماعة. المهم القدس. اذا راحت رُحنا.

وقالت بعض الأوراق السرية :

ـ لو سُلّحت الجماهير لاختلف الأمر.

وقال الأصدقاء :

ـ سقوط النبطية كارثة.

قال آخر:

ـ المهم صمود صيدا.

ثم قلنا :

ـ بير وت.

وحين تسرب خوف اقتحامها قال كثير ون :

ـ يجب ان نُحصنوا طرابلس جيداً.

ـ وقال ابي بعد خروجهم على السفن.

ـ الروس قصَرْ

وقالت أمي :

ـ «يقطع تاليهم».

وكانت تعني الحكام العرب.

وقالت في المخيم منذ اليوم الأول في الرمل.

ـ اشتغل.

جربتُ في المخيم. اسبوعاً فانهد جسدي. كانوا يحفرون ما يشبه البرك المربعة. قال كثيرون.

ـ لماذا؟ لن يقف العالم متفرجاً وسوف نعود قريباً.

كنتُ أقف على حافة الحفرة منذ الصباح. أنحني. أمسك بأذنيّ (القفه). استقيم. اذهب عدة خطوات. اقذف التراب. أعود. اجد الأخرى في انتظاري. انحني واستقيم حتى المساء. اقبض ثلاثين قرشاً. تأخذها أمي. وتدق الباب.

ـ اذهبي الآن.

نادت.

ـ اذهبي الآن.

دقت بقوة. أمي دوله. سأضعها بين الدول في احد الرفوف. دول حمر. دول صفر. دول زرق. دول خضر. دول كبرى. دول وسطى. دول نامية. دول اولى. دول ثانية. دول ثالثة. دول عاشرة. دول غير مصنفة. دول تدق الطبول. دول تفجر البحر. سأختبىء وافلتُ منها. فتاة العزلة طارت. ليس إلى الشرق ليس إلى الغرب. صعدت إلى السماء مثل الغجرية. وأنا سأصعد إلى السماء. أذهبُ في سحب الفوضى حتى انهيار الأشياء. قفزتُ عن السرير. لعبة معبأة. انهمرت احمر على الأرض. لم ار ذلك حين مات جدي. كان ابيض كالبياض. عمامته بيضاء. لحيته بيضاء. كفنه ابيض. في عنقه سبحة بنية طويلة. كانت تشتبك بشعر لحيته الأبيض. يخرج صباحاً من البيت، يجلس تحت شجرة لوز على حدود القرية. مرتبط بالشمس. تمشي فيزحف على التراب الأحمر الناعم. يقرأ القرآن. أمد يدي خلسة وارفع السبحة حتى تعلق في لحيته. يغضب. أما حين افعل ذلك وهو يتناول غداءه فإنه يضحك. أسأله كل يوم:

ـ كيف كانت جدتي.

يضحك ويقول:

ـ والله حلوة يا يوسف.

ـ طيب، لماذا لا تتزوج يا جدي؟

فيقول وعيناه في الحقول تركضان مثل فراشتين بنيتين.

ـ راحتْ.

أقول باهتمام طفولي:

ـ ألا يوجد غيرها؟

يضحك كثيراً فتهتز لحيته ثم يقول:

ـ راحت عليَّ وعلى «شيبتي».

ويشير إلى لحيته البيضاء. اضمت، وألعن سراً تلك التي راحت.

يخرجني من صمتي حين يقول:

ـ عندما نعود، (يهونها ربك).

فأقول بغضبي الذي يُضحكه.

ـ كلي يومٍ تقول ذلك.

يبتسم بصفاء ويقول بهدوء:

ـ الصبر يا جدي، الصبر..

تقفز عيناي إلى شجرتي الصبر القريبتين، واقول ساخطاً.

ـ لا أحبه. والله العظيم لا احبه. شوكة ينغرز في اللسان،

ويضحك جدي. دائماً يضحك. حتى حين مات. في اللحظات التي رأيته فيها قبل صعود الجبل، كان يضحك. كدت اسأل عن سبب ذلك. لكنهم ظلوا يحولون بيني وبينه. وحين بدأت الجنازة الصعود عرفت لماذا يضحك. كان عُرساً. جاء رجال كثيرون من قرى بعيدة. رجال لم ار مثلهم من قبل. لحى ملونة. عمائم كبيرة. طبول. دفوف. (صاجات) نحاسية كبيرة. اعلام خضراء. اعلام بيضاء. بعضها قبل النعش وبعضها خلفه. ضجت القرية كما لم تفعل من قبل. جاء الصدى من الوادي القريب. لم يبق أحد إلّا وصعد الجبل. في المقبرة، شكل

بعض الوافدين حلقة خاصة. اهتزوا تمايلوا ببطء في البداية. يميناً ويساراً في حركة واحدة. اغمضوا عيونهم. تمتموا ببطء، ثم علت اصواتهم. علت الطبول، وتحولت اصواتهم إلى صراخ وحشي.

ـ الله.

وازدادت الحركة. تمايلت الأجساد بعنف. سقطت بعض العمائم. خرج لعاب من بعض الأفواه. دمعت عيون. شعرتُ بالرعب. وتساءلت عن السِّر الذي يجعل هذا يُضحك جدي. وتحاول أمي أن تدفع الباب، وأنا انهمر مطراً احمر دافئاً في الغرفة. واعرف سبب ضحكة جدي. واحسده على السنوات التي قضاها بعيداً. اول شخص سأراه. الثوب الأبيض. العمامة البيضاء. اللحية البيضاء. سأقول له كل شيء. أمي تقول ان الموتى يعرفون بما يدور فوق الأرض، لكني سأحكي لجدي عن بير وت بالتحديد: خرجوا يا جدي. كانوا قادرين ولكن خرجوا. أقول لك لماذا؟ لأن احداً لم يرغب في بقائهم. مرت ثمانون يوماً وهم ينتظرون في القتال ان يحدث شيء ما. لكن احدا لم يقدم لهم سوى المديح والمجد والمقالات. قلنا انهم عظماء. وانبياء. وانصاف آلهة. لكن ذلك لم يمنع طائرة واحدة من إفراغ حمولتها فوقهم. فخرجوا. هل تذكر يا جدي حصار (كفار عصيون)؟ ولم يفك المجاهدون الطوق إلاّ بشروطهم؟ حدث معنا ذلك. والأدهى أنه يتكرر في مناطق اخرى. في سنوات متفاوتة. في شهور متنوعة. لم يبق مكان إلاّ وشهد لنا حصاراً أو مجزرة. لم يبق فلسطينيٌّ واحد إلاّ وله قريب أو صديق شهيد. يريدون ان يجعلوا منا ابطالاً بالمجازر والغزوات. ونحن لا نريد سوى أن نعيش كالآخرين. لا نحب السلاح. هل تذكر كم كنت أنت تكره السكين؟ نريد ان نعود إلى بيوتنا لأنها اكثر أمناً. ليكن العالم كله ابطالاً باستثنائنا. لكنهم لا يريدون ابطالاً سوانا، فنصاب بالحصارات والمذابح، ويتقبلوننا بأكاليل الورد والزغاريد والعناق والدموع. وتنتشر الصور في كل بقاع الأرض، والسبابة والوسطى متباعدتان في كل يد. ثم نثروهم في الصحارى وجبال الأفاعي

والمعسكرات المغلقة. ثم انبطحوا انفسهم وراحوا يطلقون النار في اتجاه بعضهم بعضاً. تصور اثنين يا جدي كانا معاً خلف متراسٍ في المتحف. عشرة امتار عن متراس العدو. كم كان الواحد حينها يحب الآخر؟ وبخاصة حين يراه يحرق دبابة تحاول العبور تصور يا جدي انهما بعد الخروج اطلقا النار في اتجاه بعضهما. تصور أن احدهما ربما قتل الآخر. هل تظن انني سأذهب للجحيم يا جدي؟ أنا لا أظن. زوربا قال ان الله سيمسح الروح يوم القيامة بقطعة من الاسفنج المبلول بالماء المقدس. وزوربا حكيم يا جدي. وزوربا ناسك متعبد.

أنزلوني بهدوء. كانوا يرددون.

ـ لا إله إلّا الله.

ثم يرتفع صوت حاد.

ـ وحّدووووه.....

ـ لا إله إلا هو...

وأنا اهبط القبر ببطء. كان على اثنين ان يهبطا معي. هبطا. اختار أحدهما الوجه والآخر القدمين. اكثر من صوت في الأعلى قال:

ـ الجانب الأيمن.

ـ رُمانةُ الكتف.

فعلا ذلك باتقان. فك الأول العقدة عن الوجه فبان الوجه. رشقه بحفنة ناعمة من التراب. ارتاح من عينيَّ وقدماه على حافتيَّ اللحد. لو انزلقت قدمه لداستني. امسك البلاطة المتكئة على جدار القبر فوق اللحد. أمالها بهدوء. بهدوء. بهدوء. حتى استقرت فوق وجهي. ليس وجهي فقط. ربما غطت اكثر من نصفي العلوي. اخذ نفساً طويلاً بعد ان استقام. غطى الآخر ما تبقى من جسدي ببلاطة اخرى. ظلت بعض الثقوب الصغيرة حول البلاطتين. اغلقوها بالحجارة. ناولوهما شيئاً من الطين. أحكما اغلاق اللحد. صاح اكثر من صوت:

ـ اصعدا.

فصعدا بقفزة واحدة وانضما إلى الواقفين. اختفى الميت في اللحد. تحركت المجارف تعزق التراب. دقائق حتى استوت الأرض. رش احدهم قطرات من الماء. تماسك التراب. غرس آخر حجراً عند الرأس وحجراً عند القدمين. هبط طائر الصمت دون اذن. تربع الشيخ.

ـ وقل لهما:

أشهد انني قدمت على قول اشهد ان لا إله إلاّ الله وان محمداً رسول الله. الفاتحة لروحه ولارواح المسلمين جميعاً.

رفع يديه وبسطهما باتجاه السماء. مثله فعل الآخرون، ثم مسح الجميع وجوههم بأيديهم.

اقترب الأطفال من الشيخ. تناول كيساً صغيراً من جيبه. وراح يوزع القطع النقدية على الأطفال، ولا ينتهون. ثم انتهوا وذهب المشيعون بعد أن صافحوا أهلي المصطفين. قلت للميت ولا ثالث بيننا في القبر.

ـ أنت حمار.

فرد عليَّ بهدوء.

وأنت كذلك...

صدر للمؤلف

١ ـ العربات ـ قصص ـ اتحاد الكتاب العرب ـ ١٩٧٩م.
٢ ـ نجمة والأشجار ـ قصص ـ اتحاد الكتاب العرب ـ ١٩٨٠م.
٣ ـ المكاتيب لا تصل أمي ـ قصص ـ دار الأفق الجديد ـ ١٩٨٢م.
٤ ـ اليوم الثالث في الغياب ـ قصص ـ اتحاد الكتاب العرب ـ ١٩٨٣م.
٥ ـ ذلك المساء ـ قصص ـ دار الشروق ـ ١٩٨٥م.
٦ ـ مدارات لكوكب وحيد ـ قصص ـ اتحاد الكتاب العرب ـ ١٩٨٨م.
٧ ـ حكايات عن طيور البطريق ـ قصص للأطفال ـ ترجمة ـ دار ابن رشد ـ ١٩٨٤

سُحب الفوضى

مزيج من الفوضى والفوضى تتجمع في الفوضى لتشكل كتلة من الفوضى بلا شكل محدد. كل جزء فوضى. كُل كُل فوضى، الولد: السائق. الفتاة. المرآة. العجلات، الشارع. الولد يقول: «آخر موقف». غبي. كل آخر ابتداء. كل ابتداء آخر، كل آخر آخر. كل ابتداء ابتداء. كل جزء جزء. كل جزء كل. كل كلٍّ جزء، يتوزع الواحد إلى مئة. ألف. ملايين مختلفة. والأطفال يقذفون السيارات بالحجارة والأغاني. والرصاص يُعلن عن نفسه بوقاحة سكير مفرط في السُّكر. يَشبهون أقاربهم في مخيمات المنافي وساحات المجازر. اجازف أكثر؟ يشبهون الأطفال في كل مكان. يُحبون الحلوى والصخب. ويحبون الألعاب، لكنهم لا يلعبون سوى بالحجارة والنار. الحجارة محك الأطفال.

السعر : ٤٥ ل. س